أبوالحسن علي الحسني النّدوي

عالماً ربانياً، أديباً و قائداً

بقلم: الدكتور شفيق أحمد خان الندوي

رئيس قسم اللغة العربية، الجامعة الملّية الإسلامية

نيو دلهي

سماحة الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي رحمه الله طاب حياً و طاب ميتاً بالفعل. إنه قضى حياة سعيدة حافلة بالعطاء لمدة ثلاثة أرباع من القرن، و نال سمعة طيبة في الآفاق، و ذلك بناءً على اسهاماته التربوية البناءة، و جهوده الدعوية و مؤلفاته العلمية الأدبية القيمة التي أدت دوراً مهماً في سبيل نشر المعارف الإسلامية، و تحسين الأوضاع الاجتماعية العامة و ترويج القيم الخلقية الإنسانية بوجه عام.

توفي يوم الجمعة، الثالث و العشرين في شهر رمضان المبارك، في العشر الأواخر منه، و في آخر يوم من السنة الميلادية بنهاية القرن العشرين قبيل صلاة الجمعة، و كان قد توضأ و استعد للصلاة و شرع يتلو سورة الكهف فسورة يٰس، كعادته كل أيام الجمع. و تمت إقامة صلاة الغائب على روحه في المسجد الحرام، و المسجد النبوي الشريف بعد صلاة العشاء من يوم الاثنين ليلة السابع و العشرين من الشهر المبارك ١٤٢٠هـ بأمر خاص من خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز حفظه الله، و بدعوة و دعاء من الرئيس العام لشؤون الحرمين الشريف سماحة الشيخ محمد بن عبد الله السبيل اكرمه الله، إمام

و خطيب المسجد الحرام، بمكة المكرمة. تغمد الله الفقيد بواسع الرحمة و الرضوان و ادخله في فسيح الجنات و أنزله منازل الابرار في عليين.

و إذا نظرنا إلى أعماله الجليلة و ماثره الخالدة لوجدناه مفخرة لبلادنا الهند و ثروة لأمتنا الإسلامية جمعاء، و عرفناه أمة في ذاته و قرنا في صفاته، متمتعا بشخصية شاملة فذة ذات الجوانب المتعددة. و مزاياها المتنوعة. فإنه حاول نشر المعارف الإسلامية عن طريق الكتاتيب و المراكز و الجامعات و نحوها من المؤسسات و الجمعيات في الشرق و الغرب، و سعى إلى توحيد صفوف المسلمين في مشارق الأرض و مغاربها بواسطة المنظمات العالمية العديدة، و نفخ روحاً دينية جديدة في كافة أرجاء المعمورة عن طريق جولاته و صولاته الدعوية، و استلفت انظار العالم إلى نهضة إسلامية جديدة و إلى ما يواجهه من خسارة بسبب انحطاط المسلمين، فدعاه إلى استعادة المجد المفقود، بواسطة تاليفه الشهير: "ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟" و شعر بنوع من الردة الفكرة و جاهلية من القرن العشرين فتذكر جهود سيدنا أبي بكر رضى الله بمثل هذه المناسبة و نادى بشعار حيوي: ردة و لا أبابكر لها، و طالب الناس ب: الجمع بين القديم الصالح و الجديد النافع، و دعاهم: إلى الإسلام من جديد. و قام مجاهدا بقلمه و لسانه، و انجز لوحده ما لا تنجزه الأكاديميات. و لم يكتف بذلك فحسب بل و تقدم إلى الأمام و خاض المعارك السياسية و الاجتماعية في الأوساط غير الإسلامية فحرك ضمير الشعب، و قاد الامة و كشف الغمة و أصلح ما اعوج بآرائه السديدة و جهوده البناءة و مناداته الجرئية المتواصلة، إلى جانب إنذاره جماهير الشعب و قادتهم، و أمراءهم و ملوكهم و مثقفيهم بالأخطار المحدقة ضد الحضارة الإنسانية جمعاء.

ولد الشيخ في ١٣٣٣/١/٦هـ الموافق ١٩١٤/١١/٢٤م في تكية بمديرية راي بريلي بولاية اوتاربراديش الشمالية الهندية، في اسرة دينية مثقفة ذات الجذور

العربية الأصيلة، و كان ابوه، ايضا، رئيسا لندوة العلماء و كاتبا إسلاميا كبيرا، ألف كتبا قيمة باللغة العربية منها موسوعة عربية أدبية في ثمانية مجلدات ضخمة باسم نزهة الخواطر، و الثقافة الإسلامية في الهند، و الهند في العهد الإسلامي. و امه حفظت القرآن الكريم بكامله في طفولتها، و كانت شاعرة و مؤلفة كتب بالأردية نحو ديوان شعر لها، و مفتاح باب الرحمة، و حسن المعاشرة و لذا فإن الشيخ الندوي منذ نعومة أظفاره ظل ملما بالثقافة، و مولعا بالكتب و محبا للمكتبة. كما يقول بنفسه في سيرته الذاتية:

" لقد كانت بيئة الوالد بيئة علمية محضة فكان يشتري كثيرا من الكتب و كان المؤلفون و الكتّاب يبعثون بمؤلفاتهم إليه أيضا و كان ينظر في كثير من هذه الكتب و المجلات و الرسائل نظرة ثم يضعها في جانب و يستغنى عن بعضها، فكنت أفتش في هذه الكومة التي كان يستغني عنها الوالد عن الرسائل و المجلات و فهارس الكتب للمكتبات التجارية و اختار منها، و كان هناك دولاب مفتوح في صحن البيت، فاضع هذه الكتب فيه و أصففها، و قد هيأت لافتة لهذا الدولاب كتبت عليه: مكتبة ابي الحسن علي." (ج ١ ص ٦٢: في مسيرة الحياة)

أما شقيقه الاكبر الدكتور عبد العلي الحسني فإنه أيضا كان رئيس ندوة العلماء عقب وفاة والده و كان جامعا بين العلوم الدينية و العلوم الطبية، تخرج في دار العلوم بديوبند، و التحق بكلية كنغ جورج الطبية فحصل على بكالوريوس الطب. و بعد وفاة والده عام ١٩٢٣م قام برعاية أخيه الصغير ابي الحسن و هو في ١٠ سنوات من عمره، و وفر فرصة له للاستفادة من الأستاذين الجليلين الشيخ خليل بن محمد الأنصاري اليمني و الأستاذ الدكتور تقي الدين الهلالي المراكشي في رحاب دار العلوم لندوة العلماء لكنئو و من المفسر الشيخ احمد علي اللاهوري في لاهور، ثم أقام عند الشيخ المجاهد حسين أحمد المدني عام ١٩٣٢م في دار العلوم بديوبند عدة شهور و حضر دروسه

في صحيح البخاري و سنن الترمذي و استفاد منه في التفسير و علوم القرآن الكريم ايضا، كما استفاد من الشيخ الفقيه الاديب إعزاز علي في ، ضته و الأدب و من الشيخ المقرئ أصغر علي في التجويد على رواية حفص.

تعين مدرسا في دار العلوم لندوة العلماء عام ١٩٣٤م و أقبل على المطالعات الحرة، فوضع المقررات الدراسية لتعليم اللغة العربية فألف قصص النبيين للأطفال في أربعة أجزاء، و القراءة الراشدة في ثلاثة أجزاء و مختارات من أدب العرب في جزئين مع تعريف موجز بأصحاب النصوص و ميزاتهم الأدبية.

خرج لزيارة المراكز الإسلامية الرئيسية و تفرغ للعمل الدعوى منذ عام ١٩٣٩م متوكلاً على الله جل و علا، متأثراً بحركة جماعة التبليغ لصاحبها الشيخ محمد الياس الكاندهلوي رحمه الله عليه، فأقام مركزاً للدعوة الإسلامية و الإصلاح الاجتماعي في لكنئو برفقة زميله الشيخ محمد منظور النعماني رحمه الله عليه و معهدا للتعليم الإسلامي لتربية الراشدين و تعليم لغة القرآن للمبتدئين الكبار بمساعدة الشيخ عبد السلام القدواني الندوي و الدكتور مشير الحق رحمهما الله. و تمّ انتخابه عضوا للمجلس الإداري عام ١٩٤٨م فوكيلا لشؤون التربية و التعليم عام ١٩٥٤م عقب وفاة العلامة سيد سليمان الندوي و بالتالي رئيسا عاما لها إثر وفاة شقيقه الشيخ الدكتور عبد العلي الحسني رحمه الله. أنشأ أكاديمية للبحوث و النشر باسم المجمع الإسلامي العلمي ١٩٥٩م، و مجلس التعليم الديني ١٩٦٠م. و شارك في إنشاء المجلس الاستشاري الإسلامي الهندي العام عقب الاضطرابات الطائفية في جمشيد بور و راوركيلا مع الدكتور سيد محمود و الدكتور عبد الجليل فريدي و الشيخ محمد منظور نعماني و الشيخ محمد مسلم عام ١٩٦٤م. كما شارك في إنشاء هيئة عموم الهند لقوانين الاحوال الشخصية في ١٩٧٢م و رأسها حتى حين وفاته،

و مازالت قائمة و شغالة بوصفها منتدى إسلاميا موحدا و فعالا للمسلمين في الهند، إنها ذللت كثيرا من العقبات في سبيل الاحتفاظ بالهوية الإسلامية في هذه البلاد، و تغلبت على مشكلات اجتماعية مهمة، بما فيها موافقة البرلمان الهندي على عدم التدخل الحكومي في الأحوال الشخصية الإسلامية.

علماً بانه من أهم المكونات التي أدت دوراً مهماً في تكوين شخصية الشيخ أبي الحسن، صلته بالشهيدين - أحمد بن عرفان الراي بريلوي و محمد اسماعيل رحمهما الله - و ارتباطه باعضاء جماعة الإخوان المسلمين و أعلامهم في مصر. و هو ينتمي إلى أسرة الشهيد أحمد بن عرفان الذي قاد حركة إسلامية ثورية في القرن الثالث عشر الهجري لإقامة نظام العدل و الإحسان على نمط الخلافة الراشدة في الهند فاستشهد في سبيلها مع الشيخ محمد اسماعيل و زملائه الآخرين في وادي بالاكوت (باكستان حالياً) في ١٢٤٦هـ/١٨٣١م، يحبه الشيخ و يجعله قدوة له منذ الطفولة، و أول مقال له بالعربية نشر في مجلة "المنار" لصاحبها رشيد رضا المصري عام ١٩٣١م حوله عندما كان في ١٤ عاماً من عمره. و ظهر له أول كتاب بالأردية عام ١٩٣٧م بإسم سيرة سيد أحمد شهيد، و نال قبولاً عاماً في الاوساط الدينية و العلمية في سائر شبه القارة الهندية الباكستانية. أما بخصوص إرتباطه بجماعة الإخوان المسلمين فإنه معروف واضح وضح النهار من خلال كتاباته و رحلاته. و قائمة مؤلفات الشيخ أبي الحسن لصاحبها محمد طارق زبير الندوي (١٩٩٨م) تشير على صفحة ٢٩ إلى آخر تاليف سماحة الشيخ الندوي برقم ١٧٧، طبعه المجمع الإسلامي العلمي، بلكنئو، الهند عام ١٩٩٨م بعنوان: الإمام الشهيد حسن البنا- و ذلك ما يدل على أن الشيخ كان وطيد الصلة بمؤسس جماعة الأخوان المسلمين الشيخ المربي حسن البنا الشهيد رحمه الله. و عند ما زار شيخنا مصر عام ١٩٥١م التقى بالشيخ أحمد بن عبد الرحمن البنا السباعاتي والد

الشيخ حسن البنا المجاهد الشهيد و أعرب عن اسفه على عدم مقابلته مع ابنه المرشد المربي المجاهد الشهيد حسن البنا و استمع منه إلى حديثه طويلا. ثم قابل أعلام الإخوان المسلمين و ألقى خطابا عاما على نخبتهم بعنوان: أريد أن أتحدث إلى الإخوان، ثم نشره بتعريف الشيخ محمد الغزالي و تقديم مرشد الاخوان الأول الشيخ حسن الهضيبي رحمهما الله - و الجدير بالذكر أن هناك مماثلة قوية بين الكتابين و هما دعاة لا قضاة للشيخ حسن الهضيبي و بين الجباية و الهداية للشيخ أبي الحسن الندوي رحمهما الله. و كتب عنه الأستاذ سيد قطب الشهيد رحمة الله في مقدمته لقصص النبيين للشيخ النّدوي:

> "عرفت صاحب هذا الكتيب السيد أبو الحسن الندوي، عرفته في شخصيته و قلمه، فعرفت فيه القلب المسلم، و العقل المسلم، و عرفت فيه الرجل الذي يعيش بالإسلام و للإسلام، و على فقه جيد للإسلام. و هذه شهادة اله أوديها."

و كذلك فإن الشهيد سيد قطب رحمه الله قدم الكتاب: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين (للشيخ أبي الحسن)، معبرا عن إعجابه و تقديره لذلك. و كان الشيخ يحبه كذلك و يراسله. و قد رآه كاتب هذه الأسطر في منزله براي بريلي باكيا بالدموع عند سماعه خبر استشهاد صديقه الحبيب الغالي سيد قطب رحمه الله.

أما بالنسبة إلى علاقته مع فضيلة الشيخ أبي الأعلى المودودي فإنه كان معجبا بكتاباته و كان قد دعاه إلى ندوة العلماء في حوالي عام ١٩٣٥م لإلقاء المحاضرات و كانت له معه صلات وثيقة و يجتمعان في الهند و باكستان و يشتركان في الندوات و المؤتمرات في البلاد العربية، و كان يثني على ما قام به الشيخ المودودي من إعداد مجموعة طيبة و نخبة ممتازة من الكتب، ينتفع بها

الشباب المسلم في مشارق الارض و مغاربها. و رافق الشيخ الندوي فضيلة الشيخ المودودي لمدة قصيرة بهدف تكثيف الجهود الرامية إلى إعلاء كلمة الحق في شبه القارة، ثم انصرف عنه ليتفرغ للعمل الدعوي مع الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي فيما بين العوام و لم يزل معجباً بالمودودي لحين وفاته رغم اختلافه عنه كاختلافه عن صديقه الحميم سيد قطب الشهيد في بعض آرائه و منهج دعوته، كما يبدو من خلال تاليفه المعروف بـ: التفسير السياسي للإسلام في مرآة كتابات الأستاذين ابي الاعلى المودودي و سيد قطب. درسه أعلام جماعة الإخوان المسلمين في العالم العربي دراسة متانية، و لم يستاؤوا به ظناً بسبب معرفتهم بإخلاص الشيخ ابي الحسن و تحرقه للاخرة و حرصه على الإصلاح الاجتماعي العام و صراحته الطبيعية الامينة مثلما عرفوه من قبل، و ازدادوا له حبا حتى شهد فضيلة الأستاذ الدكتور يوسف القرضاوي بما يلي:

> "أشهد أني أحب أبا الحسن و أرجو أن يكون حباً للّه تعالى فقد أحببته لتجرده و إخلاصه و ربانيته، و أحببته ليقينه و توكله و قوته , أحببته لتحرقه و توقده و غيرته، و أحببته لاعتداله و وسطيته، أحببته لنقاء فكره من الخرافة، و صفاء قلبه من الحسد و سلامة عقيدته من الشركيات، و سلامة عبادته من المبتدعات، و نظافة لسانه من الطعن و التجريح، بالتصريح أو التلويح، أحببته لانشغاله بالقضايا الكبيرة عن المسائل الصغيرة، و بالحقائق عن الصور، و بالمعنى عن المبنى، و بالعمق عن السطح. أحببته لحسن خلقله و سهولته، أحببته لحيائه، و رقة طبعه و دماثته."

أما علاقة الشيخ الندوي مع الجماعات الإسلامية الاخرى فإنها كانت علاقة طيبة مثلما كانت مع الجماعة الإسلامية الهندية بواسطة صديقه

الــحــميـم فـضـيلة الشيخ أبي الليث الإصلاحي الندوي أمير الجماعة الإسلامية الـهـنـديـة بـعـد الانـفـصـال الـبـاكـسـتـانـي عن الـهـند، و كان يتردد على الشيخ أبي الحسن. و رافقه كاتب هذه الأسطر مرة من لكنئو إلى راي بريلي و قضى ٢٤ ساعة معهما، و لله الحمد، فوجدهما على حب و إخلاص و تفان للعمل الدعوى و تشاور أخوي لـصالح الإسلام و المسلمين في هذه البلاد. و من أهم الخطوط الـعـريـضـة ذات الـمـصـالح المتبادلة التي اتفق عليها الشيخان عقب الانقسام الهندي على الشطرين: مواصلة سير الدعوة الإسلامية بالقلم و باللسان فيما بين الـمسلمين و غير المسلمين بالحكمة و الموعظة الحسنه و المجادلة باللتي هي أحسن مـع الـتركيز على تاليف القلوب، اجتناب النقد على الجماعات الإسلامية الأخـرى، و مـسـاعـدتها في الأعمال الخيرية و تعاونها على البر و التقوى و ترويج فـكـرة تـوزيـع الأعـمـال عـلـى الأفـراد و الـجـمـاعات المختلفة حسب المواهب و الاخـتـصـاصـات بناء على الوصايا العشـــر التي وجهها المغفور له الشهيـــد حـسن الـبـنـا إلـى الإخـوان المسلمين. فاهتمت الجماعة الإسلامية الهندية بعد الاسـتـقـلال الـهـنـدي بـتـعـريـف الإسلام إلى غير المسلمين عن طريق مكتباتها و صـحـفـهـا و مـجلاتها باللغات الهندية المحلية بوجه خاص، كما اهتمت ندوة الـعـلـمـاء بـتـعـريـفـه لـلـمـسلمين و غير المسلمين عن طريق دار المصنفين، و الـمـجـمـع الإسـلامـي الـعـلـمـي و حركة التذكير برسالة الإنسانية، و مكتباتها و صـحـفها و مساعدتها لجماعة التبليغ الديني في سبيل تعليم المبادىء الدينية و الـنـوعـيـة الإسـلامـيـة بـين عامة المسلمين في القرى و المدن. بالاضافة إلى مـشـاركـتـهـمـا فـي حـل قـضايا الأمة، الممثلة في مقاومة الموجات القومية، و الاضـطـرابـات الـطـائـفية، و ضرورة بث شبكة المدارس الإسلامية، و الحفاظ عـلـى قـوانين الأحوال الشخصية، و الاحتياج إلى ترويج القيم الخلقية الإنسانية النبيلة عن طريق الأدب.

قام الشيخ أبو الحسن و خرج من عزلته فتراس هيئة عموم الهند لقانون الأحوال الشخصية فهز القادة الهنود و ارغمهم على عدم التدخل في قوانين الأحوال الشخصية الإسلامية، و قاد مجلس التعليم الديني فركز جهوده على إنشاء الكتاتيب الإسلامية، و بث شبكة دينية تربوية في القرى و الارياف و أحياء المدن. و قام لمكافحة التيارات القومية غير الإيجابية في الهند و في العالم الغربي على السواء، و منع الحكومة من تصرفاتها الديكتاتورية إبان حكومتها الطارئة و غير الطارئة بشان تخطيط الأسرة و تحديدها و إجبار الدارسين على إنشاد نشيد معين مضاد لفكرة التوحيد الإسلامي، رغم تعرضه للإجراءات التعسفية المرهبة.

و هكذا استمر الشيخ الندوي في جهوده في سبيل اللّه و جهاده لإعلاء كلمة الحق، و على حد تعبير الأستاذ الدكتور محمد بن سعد حسين: عندما يذكر الجهاد بالقلم و اللسان و الكلمة الصادقة المخلصة، يكون أبو الحسن الندوي من المقدمين في أرباب هذه الميادين في العصر الحديث (صحيفة الرائد الهند شوال ١٤٢٠هـ نقلاً عن مجلة الأربعاء). و بناء على ذلك نستنتج بأن أبا الحسن كان مكافحاً للحق و مجاهداً لقلمه و لسانه لمدة العمر. و لم يتنازل عن روح الجهاد التي تلقاها من جماعة المجاهدين و الشهداء و ينقص من حماسها شيئا. و إنما غير استراتيجية الدعوية حسب الظروف و المقتضيات العصرية، و شانه في ذلك شان صياد متضلع يسعى إلى صيده فيغير استراتيجياته حسب الظروف و الأوضاع، طبقاً لما قاله الشيخ أحمد بن عبد الرحيم المعروف بـ شاه ولي الله الدهلوي رحمه الله في تاليفه البديع: "حجة اللّه البالغة" في أسرار الشريعة و تدبير الأمور المنزلية. و كان الشيخ الندوي متأثراً بذلك و يردد ما قاله سيدنا ابوبكر الصديق رضي الله عنه وقت الردة: أ ينقص الدين و أنا حي؟ أثناء مواقفه من التغلب على المشكلات الاجتماعية و السياسية.

إنـه كان رئيسا لرابطة الأدب الإسلامي العالمية منذ تأسيسها في الرياض عـام ١٩٨٤م و هـي تصدر مجلة أردية من لكنئو بإسم "كاروان أدب" بإدارة فضيلة الأستاذ الشيخ محمد الرابع الندوي و أخرى عربية من الرياض و يديرها الأستاذ الدكـتور عـبد القدوس أبو صالح باسم "مجلة الأدب الإسلامي"، و رئيسا لمركز أوكسفورد للدراسات الإسلامية بجامعة أوكسفورد، و كان عضواً تأسيسياً لرابطة الـعـالم الإسلامي بمكة المكرمة منذ أول يومها. و يقول الدكتور محمد عبد يماني وزير الاعلام السعودي الأسبق في جريدة الشرق الأوسط (الثلاثاء ١٨ شوال ١٤٢٠هـ ص ١٦): "إن الشيخ أبا الحسن كان من الأعضاء الذين دعوا إلى تاسيس رابطة العالم الإسلامي في موسم حج ١٣٨١هـ/١٩٦١م فالتقى بالملك سعود رحمه اللّه، و بمفتي المملكة العربية السعودية في ذلك الزمان فضيلة الشيخ محمد بن ابراهيم بن حميد، و بمفتي مصر الشيخ حسنين مخلوف، و قد كان الندوي من الأعضاء المؤسسين و الدائمين لهذه الرابطة، يحظى بالتقدير و الاحترام من رؤسائها، و جميع أعضائها منذ تأسيسها حتى توفاه اللّه."

و كذلك كان عضوا للمؤتمر الإسلامي العام و عضواً في المجلس الأعلى العالمي للمساجد و عضواً للمجمع الفقهي الإسلامي، كما كان عضواً في المجلس الاستشاري الأعلى للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، و كانت له إسهامات مشكورة في أنشطة العديد من الهيئات و المؤسسات الإسلامية مثل الندوة العالمية للشباب الإسلامي، إلى جانب عضويته في مجمع اللغة العربية بدمشق، و مجمع اللغة العربية بالقاهرة و مجمع اللغة العربية في الأردن، و مجلس الشورى لدار العلوم بديوبند، و رابطة الجامعات الإسلامية في الرباط، و الجامعة الإسلامية العالمية في إسلام آباد، و الاكاديمية الملكية للحضارة الإسلامية في الأردن. و نحوها كثير و كثير.

و مع ذلك كله فإن عظمته الشخصية، كما اعتقد لا تكمن إلاّ في شموله الشخصي، و مؤلفاته القيمة و إخلاصه للّه وحده و حبه للرسول عليه الصلاة و السلام. و حسبنا وصفاً لشموله الشخصي ما كتبه أستاذنا الشيخ الدكتور سعيد الأعظمي الندوي: "إن حياته كانت ذات مناح متعددة، و جوانب كثيرة، فكان عالماً بصيراً، و داعية كبيراً، و مفكراً إسلامياً، و أديباً فذاً، و متكلماً بلغة العصر، و خطيباً بارعاً يتحدث عن القضايا المستحدثة و مربياً يتناول الناس بحكمة بالغة، و كاتبا قديراً سابقاً على أسلوب الزمن، و أستاذاً رحيماً معنياً بتلاميذه بلطف و رحابة صدر."(مجلة البعث الإسلامي محرم و صفر ١٤٢١هـ)

و قديماً قيل:

و ليس على اللّه بمستنكر

أن يجمع العالم في واحد

أما مؤلفاته العربية فإنها تزيد على ١٥٩ كتابا بين صغير و كبير أهمها كالآتي:

١ ـ ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين

٢ ـ رجال الفكر و الدعوة في الإسلام

٣ ـ الاركان الاربعة في ضوء الكتاب و السنة، مقارنة مع الديانات الاخرى

٤ ـ السيرة النبوية على صاحبها الصلاة و السلام

٥ ـ النبوة و الأنبياء

٦ ـ روائع إقبال

٧ ـ الطريق إلى المدينة

٨ ـ إذا هبت ريح الإيمان

٩ ـ التربية الإسلامية الحرة

١٠ ـ العقيدة و العبادة و السلوك

١١ ـ روائع من أدب الدعوة

١٢ ـ حديث مع الغرب

١٣ ـ مذكرات سائح في الشرق العربي

١٤ ـ من نهر كابل إلى نهر يرموك

١٥ ـ أسبوعان في المغرب الاقصى

١٦ ـ أسبوعان في تركيا

١٧ ـ المسلمون و قضية فلسطين

١٨ ـ إلى الإسلام من جديد

١٩ ـ المدخل إلى الدراسات القرآنية

٢٠ ـ الصراع بين الإيمان و المادية

٢١ ـ المسلمون في الهند

٢٢ ـ التفسير السياسي للإسلام

٢٣ ـ القادياني و القاديانية

٢٤ ـ العرب و الإسلام

٢٥ ـ نفحات الإيمان بين صنعاء و عمان

٢٦ ـ أحاديث صريحة مع إخواننا العرب و المسلمين

٢٧ ـ صورتان متضادتان

٢٨ ـ شخصيات و كتب

٢٩ ـ الإسلام أثره في الحضارة و فضله على الإنسانية

٣٠ ـ ربانية لا رهبانية

٣١ ـ ترجمة الإمام أحمد بن عرفان الشهيد

٣٢ ـ الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية قِي الأقطار الإسلامية

٣٣ ـ المرتضى سيرة أمير المومنين علي بن طالب رضي الله عنه

٣٤ ـ عاصفة يواجهها العالم الإسلامي العربي

٣٥ ـ الإسلام و المستشرقون

٣٦ ـ الدعوة الإسلامية في الهند و تطوراتها

٣٧ ـ الفتح للعرب المسلمين

٣٨ ـ كارثة العالم العربي

٣٩ ـ الإسلام و الغرب

٤٠ ـ ردة و لا أبابكر لها

٤١ ـ ملة ابراهيم و حضارة الإسلام

٤٢ ـ إلى الرأية المحمدية

٤٣ ـ تعالوا نحاسب أنفسنا و قادتنا

٤٤ - إلى قمة القيادة العالمية

٤٥ - الإسلام في عالم متغير

٤٦ - من دون أحد

٤٧ - من غار حراء

٤٨ - اسمعوها مني صريحة أيها العرب

٤٩ - اسمعي يا مصر

٥٠ - اسمعي يا سوريا

٥١ - اسمعي يا إيران

٥٣ - اسمعي يا زهرة الصحراء (الكويت)

٥٣ - أحاديث صريحة مع إخواننا العرب المسلمين

٥٤ - أريد أن أتحدث مع الإخوان

٥٥ - الإسلام فوق القوميات و العصبيات

٥٦ - أضواء على الحركات و الدعوات الدينية و الإصلاحية في الهند

٥٧ - أمريكا و أوروبا و اسرائيل

٥٨ - بين الجباية و الهداية

٥٩ - بين الدين و المدنية

٦٠ - بين الصورة و الحقيقة

٦١ - بين العالم و جزيرة العرب

٦٢ ـ بين نظرتين

٦٣ ـ ترشيد الصحوة الإسلامية

٦٤ ـ جوانب السيرة المضيئة في المدائح النبوية الفارسية و الأردية

٦٥ ـ الحضارة الغربية و أثرها في الجيل المثقف كما يراه أكبرالله ابادي

٦٦ ـ حكمة الدعوة و صفة الدعاة

٦٧ ـ دور الإسلام في تقدم البلاد التي دخلها

٦٨ ـ دور الإسلام في نهضة الشعوب

٦٩ ـ دور الأمة الإسلامية فى إنقاذ البشرية

٧٠ ـ رسالة التوحيد

٧١ ـ رسالة سيرة النبي الأمين إلى إنسان القرن العشرين

٧٢ ـ غارة التتار على العالم الإسلامي و ظهور معجزة الإسلام

٧٣ ـ فى مسيرة الحياة ١ ــ ٣

٧٤ ـ قصص النبيين للأطفال ١ ــ ٥

٧٥ ـ مختارات من أدب العرب ١ ــ ٢

٧٦ ـ القراءة الراشدة ١ ــ ٣

٧٧ ـ كيف يستعيد العرب مكانتهم اللائقة بهم

٧٨ ـ كيف ينظر المسلمون إلى الحجاز و الجزيرة العربية

٧٩ ـ ندوة العلماء مدرسة فكرية شاملة

٨٠ ـ نظرات في الأدب

٨١ ـ وا معتصماه

٨٢ ـ الإمام الشهيد حسن البنّا رحمه الله

و ليس من السهل حالياً أن نخوض معكم في خضم بحاره الادبية و العلمية من خلال مولفاته، و لكننا نزودكم ببعض النقاط المهمة حيال الموضوع بواسطة كتابات بعض العلماء البارزين من العالم العربي.

تمّ تكريم العلامة الندوي في تركيا، على هامش المؤتمر الرابع للهيئة العامة لرابطة الأدب الإسلامي العالمية في تركيا عام ١٩٩٦م، و اقيمت ندوة ادبية حول حياته و جهوده الدعوية و الادبية. اجتمع فيها الادباء العرب و أعلام الفكر الإسلامي و تقدموا بدراساتهم في إسهاماته العلمية و الادبية، اشادوا بها إشادة موفورة، أهمها دراسات الأستاذ الدكتور يوسف القرضاوي و الأستاذ الدكتور عبد الحليم عويس، و الأستاذ الدكتور عماد الدين خليل، و الدكتور محب الدين أحمد أبو صالح.

تقدّم الأستاذ الدكتور عبد الحليم عويس المصري أستاذ جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض سابقاً بمقالته الطويلة التي انتشرت فيما بعد بخمس حلقات من مجلة البعث الإسلامي عام ١٩٩٧م بعنوان: الشيخ أبو الحسن و قضايا الامة، و أبرز فيها الرسائل التي وجهها الشيخ الندوي إلى الملوك و الأمراء و الوزراء لتذكيرهم بالآخرة و تنبيهم إلى الإصلاح الاجتماعي العام، و سد باب ذريعة الفساد، مع أجوبتهم إليه، بالإضافة إلى شتى قضايا الأمة. قائلاً بأن الشيخ يرى أن الدعوة هي البذرة. و الوصول إلى التمكين السياسي في الأرض هو الثمرة. و أن الاهتمام يجب أن يتجه إلى البذرة، و يترك امر الثمرة للّه سبحانه يمنحها عندما تتوافر الاهلية و تتحقق الشروط.

و يقول: "إن هذه المراسلات صورة حية لجراءة الشيخ الندوي و مرآة صادقة لقلبه النابض الساهر للأمة، و غيرته على الهوية الإسلامية، و نموذج رائع لأسلوبه الأدبي البليغ."

اما الدكتور الشيخ العلامة يوسف القرضاوي مدير مركز السنة و السيرة بجامعة قطر فإنه في دراسته الوافية في: ركائز الفقه الدعوي عند العلامة أبي الحسن الندوي، و المنشورة في المجلة نفسها، يبرز ركائزه العشرين كالآتي:

١ ـ الركيزة الأولى في الفقه الدعوي عند العلامة الندوي عبارة عن الإيمان الراسخ مقابل المادية كما يتجلى من خلال الكتابين له و هما: الصراع بين الشرق و الغرب، و الصراع بين الإيمان و المادية.

٢ ـ فضل الوحي على العقل من خلال مجموعة محاضراته في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة: النبوة و الأنبياء في ضوء القرآن، و محاضرته الأخرى التي ألقاها في الجامعة الملية الإسلامية الحكومية، نيو دلهي بعنوان: بين الدين و المدنية. عام ١٩٤٢م.

٣ ـ ولوعه بالقرآن الكريم، و ذلك بناء على تأملات في سورة الكهف، و المدخل إلى الدراسات القرآنية.

٤ ـ الحرص على التمسك بالسنة، و ذلك من خلال: النبي الخاتم، و سيرة خاتم النبيين للأطفال، و الطريق إلى المدينة.

٥ ـ دافع إيقاظ الوحي الروحي الذي يتجلى من خلال شرح الأسرار الروحية و المصالح الدينية في تاليفه الشهير الاركان الاربعة في الإسلام.

٦ ـ سلوك إيجابي و محاولة الوصل و لا الفصل، كما نجدها في تاليفيه: صورتان متضادتان لنتائج جهود الرسول صلى الله عليه وسلم الدعوية و سيرة

الجيل المثالي الأول عند أهل السنة و الشيعة الإمامية، و التفسير السياسي للإسلام في مرآة كتابات الأستاذ أبي الأعلى المودودي و سيد قطب رحمهما اللهٌ.

٧ ـ الخصيصة السابعة هي عبارة عن التركيز على الجهاد في سبيل اللّه عن طريق مؤلفاته: إذا هبت ريح الإسلام، و ترجمة الإمام أحمد بن عرفان الشهيد و ردة و لا أبابكر لها، و المسلمون و قضية فلسطين.

٨ ـ تلقي دروس و عبر و اقتباس من أنوار الحماس الروحي، من خلال تراجم عظماء الإسلام في مجموعته التاريخية: رجال الفكر و الدعوة في الإسلام و المد و الجزر في تاريخ الإسلام، و إلى الإسلام من جديد.

٩ ـ و النقد على الحضارة الغربية المادية، كما يبدو بواسطة محاضراته في جامعة أوكسفورد بعنوان: الإسلام و الغرب، و أحاديث صريحة في أمريكا و نحوها.

١٠ ـ الردّ على العصبية الجاهلية و القومية و استلفات أنظار الناس إلى التوحيد و السنة و اتخاذ الأسوة النبوية الشريفة شريعة و منهاجا في سائر أمور الحياة. و ذلك ما يبدو عن طريق كثير من مؤلفاته من أمثال: أيها العرب، و العرب و الإسلام، و اسمعي يا مصر، و اسمعي يا سورية، و اسمعي يا زهرة الصحراء (الكويت)، و كيف دخل العرب التاريخ و العرب يكتشفون أنفسهم. و نحوها.

١١ ـ الركيزة الحادية عشرة في فكره تتمثل في التركيز على ختم النبوة والتنديد بالقاديانية بموجب كتابيه المعروفين القادياني و القاديانية، و النبي الخاتم.

١٢ ـ مكافحة الردة الفكرية ميزة مهمة كذلك و يمكن ملاحظتها في ردة ولا أبابكر لها. و الصراع بين الإسلام و المادية، و إلى الإسلام من جديد.

١٣ ـ الدور القيادي للأمة المسلمة و محاولة استعادته في:

ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، و قيمة الأمة المسلمة بين الامم و دورها في العالم.

١٤ ـ عظمة أصحاب الرسول عليهم الصلاة و السلام في: صورتان متضادتان لنتائج جهود الرسول صلى الله عليه وسلم الدعوية و التربوية و سيرة الجيل المثالي الأول عند أهل السنة و الشيعة الإمامية، و في: المرتضى، سيرة امير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

١٥ ـ و الأساس الخامس عشر من فكره يكمن في قضية فلسطين و استعادة القدس و يمكن مراجعة ذلك في تاليفه: المسلمون و قضية فلسطين.

١٦ ـ التركيز على ضرورة التربية الإسلامية الحرة و له كتاب بنفس العنوان التربية الإسلامية الحرة في الحكومات و البلاد الإسلامية.

١٧ ـ تثقيف أذهان الأطفال عن طريق قصص النبيين و قصص من التاريخ.

١٨ ـ توجيه الدعاة و تزويدهم بعدة الإخلاص و التقوى و التفاني للعمل. و راجع ذلك في: حكمة الدعوة و صفة الدعاة.

١٩ ـ الاعتدال و الوسطية و اجتناب الخلافات المذهبية التي نراها في: ربانية لا رهبانية، و أضواء على الحركات و الدعوات الدينية و الإصلاحية.

٢٠ ـ الركيزة العشرون في فكر شيخنا أبي الحسن انه يخاطب الإنسانية جمعاء و لا ينسى العالم اثناء معالجته للمشكلات الخاصة بالعرب و المسلمين.

علماً بانه سافر إلى بومباي في سنه المبكرة، عندما لم يبلغ إلّا ٢٢ سنة من

عمره، خصيصا لزيارة رئيس المنبوذين الدكتور بابا صاحب امبيدكار، فقابله و دعاه إلى الإسلام.

و في عام ١٩٧٤م قام بإنشاء حركة رسالة الإنسانية، و تحمّل مشاق الأسفار و متاعب التنقلات، رغم كبر سنه، و خاطب جماهير الشعب، و أعلام الهندوس و السيخ و البوذيين في شرق البلاد و غربها، و أيقظ ضمائرهم الإنسانية، و دعاهم إلى كلمة سواء بين الإسلام و الديانات الأخرى من الحق و الصدق و العدل و المساوات و كرامة بني آدم و حرمة دمائهم و أموالهم و أعراضهم، مع الاحتفاظ بالقيم الإنسانية الخلقية المعروفة. و هذه الحركة جعلته حبيب الشعب، و حامل لواء الأخوة الإنسانية و رائد الأمن و السلام في العالم كله.

هذا و من أهم مزاياه الشخصية إخلاصه للّه وحده و اتذكر على سبيل المثال و لا الحصر كالآتي:

تمّ انتخابه لجائزة الملك فيصل العالمية لخدمة الإسلام عام ١٩٧٩م و لم يتمكن من السفر إلى المملكة العربية السعودية بسبب وعكته الصحية. فوكل تلميذه الدكتور عبد الله عباس الندوي ـ عضو هيئة التدريس بجامعة ام القرى بمكة المكرمة حينذاك ـ أن يقبل و يتسلم الجائزة، نيابة عنه، و يحولها مباشرة إلى المشروع العالمي لتحفيظ القرآن الكريم، و إلى القائمين على المدرسة الصولتية بمكة المكرمة لإعانتها الخاصة و تطويرها، و إلى المجاهدين المناضلين في أفغانستان ضد القوات الروسية الشيوعية في ذلك الوقت، فكان كذلك، و لم يأت إلى الهند شيء من الجائزة.

و أعلنته دولة الإمارات العربية المتحدة كذلك كأكبر شخصية إسلامية عالمية عام ١٩٩٨م. و بعثت بطائرة خاصة إلى لكنئو لاستقدامه إلى الإمارات. و تم تسليم الجائزة في حفل مقام لهذا الغرض، في قاعة مركز دبي التجاري

الشامخ بحضور عدد كبير من أعيان العالم العربي، بثّته الإذاعات و التليفزيونات العربية العالمية.

قام صاحب السمو محمد بن راشد آل مكتوم، ولي العهد لإمارة دبي و وزير الدفاع في دولة الإمارات العربية المتحدة فقال: إن لجنة الجائزة اختارت سماحة الشيخ الندوي لهذه الجائزة، بعد فحص دقيق و دراسة متانية في مؤلفاته و أعماله. و يقول شاهد عيان من أبوظبي وهو الاخ الدكتور محمد نعيم الصديقي الندوي سلمّه الله، في مراسلة خاصة له لصحيفة تعمير حيات الأدبية الصادرة في لكننو: إن الشيخ أبي الحسن كان قد وصل إلى الإمارات في ١٩٩٨/١/٦م على متن طائرة مقلة بعثت بها دولة الإمارات إلى لكننو خصيصاً لذلك و تكريما لصاحب الجائزة. و كانت الصحف و الجرائد و المجلات مليئة، منذ أسبوع، بصور و حياة الشيخ الندوي و افكاره و أعماله و إسهاماته العلمية و الأدبية و جهوده في سبيل الله و جهاده لإعلاء كلمة الحق، بالإضافة إلى دراسات و تحاليل أدبية لمؤلفاته العربية، و لاسيما جريدة الاتحاد، و جريدة الخليج، و غلف نيوز، و خليج تائيمز. و نشرت جريدة غلف نيوز الإنجليزية قائمة مؤلفاته كذلك. و نشرت جريدة خليج تائيمز في اليوم الثامن من يناير مقالا رائعا بالإنجليزية بعنوان: رمز حي لخدمة الإسلام، عرفت فيه الجريدة نشاطات الشيخ الندوي و استعراضا عن مؤلفاته المهمة و جهوده في توحيد صفوف المسلمين و إصلاح ذات البين بصورة احسن.

و في كلمة افتتاحية للحفل، قال نائب عام حكومة دبي، رئيس عام لجنة الجائزة سمو الشيخ إبراهيم محمد أبو ملحة:

إنه من دواعي البهجة أننا لا نزال نتلقى برقيات و هواتف التهاني و التبريكات من العالم العربي و من كافة أرجاء المعمورة حيال الجائزة، و ذلك

إن دل على شيء فإنه يدل على شعبية شيخنا الجليل العلامة الإمام أبي الحسن أطال الله بقاءه. و وجود مؤلفاته القيمة بما فيها ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين في سائر مكتبات العالم هو على راس قائمة الاعتبارات التي تؤدي صاحبه إلى استحقاق كل أنواع الإعجاب و التقدير.

و قام الدكتور عبد اللطيف كانو، عضو مجلس الشعب البريطاني و مؤسس بيت القرآن الكريم ممثلا من الضيوف و الحضور فقال إن الشيخ الندوي جمع أبناء العرب و المسلمين من مشارق الأرض و مغاربها تحت لواء الإسلام في منتدى أدبي رفيع معروف بـ: رابطة الأدب الإسلامي العالمية، و استحدث في الأدب العربي اسلوبا مزيجا من القديم و الجديد. و هذا عمل جليل و خالد لا ينساه التاريخ على مرّ الأزمان.

و أخيراً تسلم سماحة الشيخ جائزته و ألقى كلمة موجزة على الحفل و حمد الله و شكره ثم شكر المهتمين بهذه الحفاوة الإماراتية حكومة و شعبا و عندما قال في غاية من التواضع و الاستغناء المثالي الذي لا يوجد نظيره إلّا في القرون الأولى:

إنني إذ أحمد الله جل و علا و أشكره، أعلن، و أنتم شهداء على ذلك، بانني أجعل مبالغ هذه الجائزة بالكامل وقفاً لله تعالى لصالح الكتاتيب الإسلامية و مراكز التعاليم الدينية في الهند و خارجها في سبيل نشر الثقافة الإسلامية و ترسيخ جذور العقيدة الإسلامية الصحيحة في الأذهان.

فامتلأت القاعة بتصفيقات من التهاني و التبريكات، في بلد من البلدان التي أصبحت غارقة في خضم البحار المادية و أمواجها اللامعة، نظراً إلى مثل هذا الاستغناء الغريب و الزهد النموذجي العفيف.

و واصل الشيخ حديثه بأسلوبه الدعوي المعروف بكل حزم و قوة، و دعاهم إلى اتباع سنن سيد الموجودات في سائر أمور الدين و الدنيا. قائلاً بأنه يرى واجبا

عليه أن يذكركم بأنه لابد لنا و لكم ايها الاعزاء أن يكون الإسلام مرجعا وحيدا في سائر جوانب الحياة طبقا لما وعد به المسلم بموجب الآية القرانية: إن صلاتي و نسكي و محياي و مماتي للّه رب العالمين، لا شريك له و بذلك امرت و انا من المسلمين. و شرح ذلك بعديد من ابيات الشاعر الإسلامي محمد إقبال. مدعما بقول سيدنا عمر الفاروق رضي الله عنه: نحن قوم أعزنا الله بالإسلام لو تركناه لاذلنا.

استمع الحضور إلى كلمته المؤثرة الفعالة و ابتهجوا بها و شعروا بطمانينة نفسية و روحية.

و أخيراً تمّ توزيع الكتابين على الحضور و هما: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، و سيرة الشيخ الندوي (بقلم عبد الماجد غوري)، و في اليوم التالي زاره أمير الشارقة سمو الشيخ سلطان بن محمد القاسمي، و نائب رئيس وزراء الإمارات سمو الشيخ سلطان بن زائد بن سلطان آل النهيان في مكان إقامة الشيخ رحمة الله.

و أعلنت حكومة بروني دار السلام مؤخرا قرارها على منح جائزة عالمية له، مثل الإمارات، و اعتذر الشيخ، فأوفدت حكومة بروني وزراء لها لتقديمها إليه، و وصلوا إلى دلهي، إلّا انهم لم يستطيعوا التوصل إلى سماحة الشيخ، بسبب عدم سماح حكومة ولاية اوتار برايش الشمالية الهندية بالدخول إلى عاصمة الولاية، لكنئو ـ فبقوا في دلهي حتى جاء مدير دار العلوم لندوة العلماء حينذاك الشيخ محمد الرابع الحسني الندوي، فاستلمها و وزّعها كالعادة بتوجيه من سماحة الشيخ على المؤسسات الخيرية.

هكذا وجدناه مخلصا للّه وحده في كافة شؤون دينه و دنياه. إنه فريد في نوعه من الإخلاص و لا يضاهيه في ذلك أحد من العالمين في القرن العشرين.

زرته لأول مرة في موطني انهونه بمديرية رائي بريلي، ولاية أوتار براديش الهند عام ١٩٥٦، و كان معروفاً و محببا في منطقتنا، تلك الوقت كذلك. استمعنا إلى حديثه بعد الجمعة. و تأثرنا بأسلوبه الساذج البسيط الذي يبعث على الحماس الديني و يثير دوافع الأعمال الصالحة. رأيناه متجولا مع الجماعة في الأزقة و الأسواق، يدعو الناس إلى الدين و مجالس ذكر اللّه و الآخرة، ينام على فرش المساجد، و يأكل مع إخوانه المسلمين في الجامع و هو مشرف تربوي لجامعة ندوة العلماء، و كاتب قدير و مؤلف شهير ذاع صيته الآفاق بتاليفه ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين. و خطيب بليغ عاد مؤخراً من جامعة دمشق أستاذا زائرا. أليس ذلك دليلا على إخلاصه للدين و إيثاره لوجه اللّه و للدعوة الإسلامية؟

و بعد سنتين من ذلك في عام ١٩٥٨، عندما تحصلت على القبول في الصف الأول العربي بدار العلوم لندوة العلماء لكنئو بفضل جهود شيخنا المربي الجليل محمد أويس الندوي النجرامي رحمه الله أستاذ و رئيس قسم علوم القرآن و تفسيره في ندوة العلماء آنذاك، فوجدت الشيخ أبا الحسن نشيطا و متحركا أكثر، إنه دخل الفصل مرة أثناء حصة المحادثة العربية مع مدرسة الفصل الشيخ سيد محمود الحسن الندوي، فتحدث معنا طويلاً باللغة العربية، و طرح الأسئلة و شجع المجيبين عليها بتوزيع جوائز نقدية من جيبه الخاص بحسب مقدرة الدارسين اللغوية. و على مرور ٤١ سنة على ذلك، الآن فإنني لا أنسى تلك اللحظة السعيدة التي كنت امامه و هو يضع ١٠ روبيات في جيبي تشجيعا لإجاباتي باللغة العربية في الفصل. و هكذا كان شيخنا و مربينا رحمه الله يشجعنا في دار العلوم دون قبوله راتبا منها أو جزاء أو شكورا.

و في عام ١٩٦٤ عندما كنت طالبا في السنة النهائية لدرجة العالمية بدار العلوم لندوة العلماء، أتاني صديق من مدينة لكنئو، فقال بدأنا بمدرسة جديدة في حيّ حسين آباد، و نرجو حضورك في الاحتفال بها و إلقاء الكلمة بمناسبة

وضع حجر الأساس للمدرسة. انزعجت لحظة فقلت: و لماذا لا تدعو أحدا من كبار علماء الدين و التربية؟ فاعتذر بحجة عدم التوصل إلى بعض أمثالهم و عدم اتساع الوقت كذلك. تناقشنا قليلا ثم انطلقنا إلى دار الضيافة حيث كان الشيخ ابو الحسن موجودا. دخلناه مباشرة و سلمنا عليه و تقدمنا بالطلب. استمع الشيخ إلى رجائنا و رحب بنا و رضي فحددنا الموعد. آن الأوان، و كان اليوم عاصفا، و كان شيخنا مصابا بالرمد، و مع ذلك فإنه كان مستعدا للتنقل بالعربة الثلاثية البشرية (الركشة)، فتوجهنا إلى مكان الحفل الكائن على بعد ٥ كيلومترات أو أكثر و وصلنا بشق الانفس بسبب العاصفة. فرح الناس كثيرا برؤية ضيفهم المبجل الكريم و رحبوا به و كبّروا و تاثروا بخلقه الحسن و تفانيه للدعوة. دفع الشيخ أجرة الركشة بنفسه و لم يقبلها من القائمين على الحفل، و لم يتناول إلّا كوبا من الشراب البارد. ثم القى خطبة بليغة عن فضائل تعليم القرآن الكريم و علومه و اتباع سنة الرسول عليه الصلاة و السلام مشجعا على مثل هذه الأعمال التربوية البناءة، و داعياً المولى القدير أن يوفقهم مزيداً لما فيه الخير و السداد و أخيرا وضع حجر أساس المدرسة. فرجع إلى منزله مع كاتب هذه الأسطر بصورة مباشرة.

هذا قليل من كثير أتذكره و لن انسى. إنه كان مثالا متفردا حيا للإخلاص و التواضع و الكرم و التوكل على اللّه عزوجل و الإنابة إليه رحمه اللّه رحمة واسعة و أسكنه في جنات النعيم مع الصديقين، و الشهداء و الصالحين و حسن أولئك رفيقا:

هيهات لن ياتي الزمان بمثله
إن الزمان بمثله لبخيل



المقاومة السلبية: اللاعنف و عدم التعاون*

بين غاندي و آزاد

قراءة في الفكر السياسي الهندي

بقلم: د/ جلال السعيد الحفناوي
كلية الاقتصاد و العلوم السياسية
جامعة القاهرة - الجيزة - مصر

مقدمة:

ساهمت القارة الآسيوية بصفة عامة و شبه القارة الهندية بصفة خاصة بنصيب وافر في طرح الأفكار السياسية الكبرى في القرن العشرين و التي كان لها دور فاعل في تاريخ الانسانية و في تطور الجنس البشري، و تنوعت هذه الأفكار في مجال السياسة و التنمية و الاجتماع وغيرها، و مازالت هذه الأفكار حية تمد الفكر الانساني بمقومات الحياة.

و يمكن القول أن شبه القارة الهندية كانت و لا تزال بيئة ثرية بالأفكار و المفكرين في الجانب السياسي. و سوف تركز هذه الورقة على الفكر السياسي الهندي من خلال قراءة قي الأفكار و الرؤى السياسية لكل من المهاتما غاندي و مولانا أبو الكلام آزاد و ذلك في فترة تاريخية مليئة بالأحداث السياسية الهامة و التي كان لها دور كبير في بلورة الفكر السياسي الهندي لدى غاندي و آزاد مع بيان أوجه التشابه و الاختلاف في دراسة مقارنة للأفكار و النظريات السياسية عندهما في ضوء التباين الديني و الحضاري و دورهما في تكوين هذه الأفكار، فغاندي هندوسي و آزاد مسلم، و القراءة الأولية للفكر السياسي الهندي عند كل

* بحث مقدم إلى المؤتمر السنوي الخامس "الأفكار السياسية الآسيوية في القرن العشرين"، مركز الدراسات الآسيوية، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، جامعة القاهرة، ٢٤- ٢٦ يناير ٢٠٠٠م.

من آزاد و غاندي تجعل من اليسير على الباحث أن يتلمس دور الدين و القومية و الميراث الحضاري في بلورة الفكر السياسي لدى كل منهما. و كثير من الباحثين يروجون لأفكار غاندي بل و يؤمنون بها دون الرجوع إلى الفكر السياسي الإسلامي الخصب في شبه القارة الهندية حيث ظلت أبواق الدعاية الغربية ثم العربية و من بعدهما الأغلبية الهندوسية تمجد الدور السياسي لغاندي و تغلبه على باقي الزعماء كان لهم دور كبير في ظهور غاندي على الساحة السياسية الهندية و كان آزاد من هؤلاء الزعماء عملوا في صمت من أجل تحرير الهند من المستعمرين الانجليز و كان متمسكا بالبقاء في الهند - على عكس محمد علي جناح رئيس حزب الرابطة الإسلامية - و قد لمع نجم آزاد في السياسة الهندية و كان صنواً لغاندي و انتخب رئيساً لحزب المؤتمر الوطني الهندي لثلاث دورات و ظل وزيراً للتعليم و الثقافة منذ تحرير الهند في عام ١٩٤٧ و حتى وفاته في ١٩٥٨م.

لقد كان غاندي و آزاد وجهي العملة في الفكر السياسي الهندي، غاندي الزعيم الروحي و نبي الهندوس و آزاد الزعيم الديناميكي في السياسة الهندية و الذي يحمل في فكره وجهة النظر الإسلامية.

إن الأفكار السياسية مثل: "عدم التعاون، أو العصيان المدني أو المقاومة السلبية" "ستيا جراها" و التي كانت حجر الزاوية في الفكر السياسي لغاندي و أساس حركته لتحرير الهند من الانجليز و استمرت منذ عام ١٩٢١م حتى استقلال الهند في عام ١٩٤٧م لم تكن جديدة لأنها أفكار سبق أن نادى بها زعماء المسلمين و على رأسهم آزاد و أقرها غاندي بعد ذلك و سلط عليها الضوء و لهذا ظلت كفة التنظير السياسي في الهند تميل ناحية غاندي دائما في مقابل آزاد الزعيم و المفكر السياسي الفاعل و رئيس حزب المؤتمر الوطني الهندي الذي يضم أغلبية هندوسية.

و لعلنا نعلن الآن بوضوح أن ما نادى به غاندي من أفكار سياسية مثل "العصيان المدني" و "المقاومة السلبية" كانت موجودة و نفذها زعماء المسلمين قبل أن يولد غاندي بمائة عام، و على هذا فقد ظلم التاريخ الأفكار السياسية و المفكرين المسلمين و دورهم في الفكر السياسي الهندي رغم أن فكرة المقاومة السلبية التي أحدثت جلبة كبيرة في الفكر السياسي في آسيا هي فكرة إسلامية، و هذا ما أكده جواهر لعل نهرو و هو سياسي هندوسي مخضرم حيث قال في مؤتمر عقد لبحث الوسائل و الطرق الغاندية عن نظرية اللاعنف: "أن غاندي لم يأت بشيء جديد من ناحية المبدأ الذي نادى به الهنود القدماء خلال القرون الماضية و إنما ميزة غاندي أنه لم يكتف بعرض هذه النظريات بل مارسها على نطاق واسع"(١).

و يقول فتحي رضوان: "و لقد اقترح المسلمون - و هم دائما العنصر النشيط الجرىء - عدم التعاون مع الحكومة الانجليزية، فاقر غاندي هذا الاتجاه، و لكن لخوفه من التطرف و الذهاب إلى نتائج خطرة، رفض أن تقاطع البضائع الانجليزية معتبراً مقاطعتها مظهراً من مظاهر الضعف و ظما الانتقام"(٢).

حركة التحرير الهندية:

سطرت الهند ملحمة كفاح رائعة في سعيها نحو التحرر من نير الاستعمار البريطاني، و جاء عام ١٩٤٧م ليتوج هذا الكفاح و الذي بدأ منذ اللحظات الأولى التي وضع فيها البريطانيون أقدامهم في شبه القارة الهندية في أواخر القرن الماضي، إذ يرى المؤرخون أن حركة التحرير الهندية تعد من أكبر حركات التحرر الوطني التي شهدها العصر الحديث، فقد التقت فيها إرادة ملايين من البشر من مختلف الطبقات و العقائد السياسية.. و في النهاية لم

يكن أمام الامبراطورية البريطانية - التي اعتادت الا تغرب عنها الشمس - إلاّ ان تركـع امـام هـذا الـطوفان الهندي المطالب بالاستقلال، و ان يافل نجمها هناك! و من ثـم احـتـلـت حـركـة التحرير الهندية مكانة في التاريخ إلى جانب الثورات الـعـظـيـمـة الـتـي شـهـدتها بلدان مثل بريطانيا ذاتها و فرنسا و روسيا و الصين و كوبا و فيتنام.

و تـحـمل الحركة الوطنية في الهند - و بخاصة مع ظهور المهاتما غاندي - كـثيراً من سمات تلك الحركات التي شهدتها مجتمعات أخرى و التي تحركت في ظـل حـدود الـقـانـون و تـمـيـزت بـإطار ديمقراطي حافظ على الحريات الدينية الأسـاسـيـة و كـانـت نـبـراسـا لـمـجـتـمـعات أخرى. فقد حاول الزعيم البولندي لـيخ فـاونـسـا، عـلـى سـبـيـل الـمـثال الاستفادة من سياسة غاندي داخل حركة التضامن البولندية.

و حـقـيـقـة الأمـر أن حـركـة التحرر الوطني في الهند تكاد تكون النموذج الـتاريخي الوحيد لخلق كيان سياسي ذي صبغة ديمقراطية، حيث لم تكن حركة لـحـظـيـة تـم الـسـيطرة من خلالها على مقادير الامور في البلاد لحظة معينة، و إنـمـا هـي حـركـة تـوجـت بـالـنجاح من خلال نضال شعبي طويل على مختلف الاصـعـدة الـسـيـاسـيـة و الايـديـولـوجية و الأخلاقية، حركة تجمعت لها القوى الـمـنـاوئـة لـلـسيطرة الأجنبية على مر السنين من خلال مراحل كفاح متتابعة تخللتها مراحل "سلبية".

كـذلـك ضـربـت حـركـة الـتـحـرير الوطني في الهند مثالاً رائعاً في كيفية الاسـتـفـادة من مـساحة الدستور المتاحة في ظل النظام القائم في سعيها نحو الـتـحـرر. فـهـي لم ترفض هذه المساحة، لان مثل هذا الرفض في المجتمعات الـديـمـقـراطية تكون عواقبه وخيمة، إذ يؤدي إلى مزيد من السيطرة - التي هي

أصلاً مرفوضة ـ و إلى العزلة .. و بدلاً من ذلك استفادت الحركة من الحقوق الدستورية المتاحة و استعانت بها إلى جانب أشكال أخرى من الكفاح في سبيل تغيير الوضع القائم.

و قد تكون حركة التحرير الوطني في الهند بصورة أو بأخرى واحدة من أروع الأمثلة على إمكانية قيام حركة وطنية كبيرة ذات هدف واحد تتآلف حوله قلوب العديد من التيارات السياسية المتباينة و هذا الاختلاف السياسي لم يكن ليضعف الحركة، بل على العكس، ساعد مثل ذلك المناخ المتحرر فيما بين هذه التيارات في اعطاء الحركة قوة دفع و كان أحد أسباب قوتها.

و مع مرور نصف قرن من الزمان على استقلال الهند فمازلنا نشعر بدفء هذا النضال من أجل الحرية و بالقدرة على التحليل الموضوعي لهذه الحركة و بلاشك فإن هذا التحليل مهم جداً ففيه يتقابل الماضي و الحاضر و المستقبل لبلد كبير مثل الهند. إذ يمكن القول بأن الطريق الذي سارت الهند عليه منذ عام ١٩٤٧م إرتسمت ملامحه في نضال ابنائها من أجل الاستقلال و بوضوح أكثر فإن الإطار السياسي و الأيديولوجي ـ الذي اتسمت به مرحلة ما بعد الاستقلال ـ يعتبر إلى حد كبير ـ نتاجاً لحركة الكفاح و الذي امتد من عام ١٨٨٥ إلى عام ١٩٤٧م لم يكن حركة حزبية .. بل حركة وطنية جمعت في بوتقتها كافة الاتجاهات السياسية من اليمين إلى اليسار.

و من أبرز ملامح هذا الكفاح اعتماده على مجموعة من القيم و على رؤية قيادة سياسية و اجتماعية و اقتصادية، و هي رؤية ذات صبغة ديمقراطية تعلي من شأن الحريات المدنية و تقوم على أساس الاعتماد على الذات و نظام اجتماعي عادل و سياسة خارجية مستقلة. و يحسب لهذه الحركة أنه ساعدت على شيوع الأفكار الديمقراطية و مؤسساتها. ففي سعي قادتها إلى قيام حركة

ديمقراطية على أساس الانتخاب الحر و طالبوا أن تتم هذه الانتخابات من خلال اعـطـاء الـبـالـغـين حق الـتـصويت و في هذا الصدد تجدر الاشارة إلى أن حزب الـمؤتمر الهندي تم تأسيسه على أساس ديمقراطي و برلماني، فقد شجع الحزب أعـضـاءه عـلـى ممـارسـة حرية الرأى داخل الحزب و داخل الحركة ذاتها. و قد خـرجـت بـعض أهم قرارات الحزب إلى النور بعد مناقشات حامية و على أساس الاقتراع المفتوح(٣).

و قد سعى حزب المؤتمر - خلال فترة توليه السلطة القصيرة مابين ١٩٣٧ - ١٩٣٩م - إلـى تـوسـيـع رقـعـة الحريات المدنية المتاحة، و لم يكن هذا الدفاع عن الـحـريات مقصوراً على حقوق مجموعة سياسية دون الأخرى، بل امتد حتى إلى الاتـجـاهات السياسية و الأيديولوجية المخالفة، فقد دافع اعضاء حزب المؤتمر عـلـى رأسـهـم غـانـدي و آزاد - غـيـر الـمـؤمنين بالعنف عن حريات الراديكاليين الـثـوريين و الـشـيـوعـيـين على حد سواء أثناء تعرضهم للمحاكمات، و شهد عام ١٩٢٨م مـعـارضـة قـويـة لـقـانوني السلامة العامة و النزاعات التجارية ليس من جانب غاندي و آزاد فحسب و إنما من المحافظين كذلك.

كـذلك سعت حركة التحرير في الهند إلى تحقيق التنمية الإقتصادية. فقد اتـفـقـت الـحـركـة فـيـمـا يـشـبه الاجماع على ضرورة تنمية البلاد على أساس الـتـصـنـيـع بـمـعـزل عن رأس الـمـال الأجنبي و من خلال الاعتماد على الموارد الـوطـنية. و في هذا الصدد اخذ القطاع العام على عاتقه دوراً مهماً، و ظهر في عقد الثلاثينات لهذا القرن إلتزام وطني بالتخطيط الإقتصادي.

و مـنـذ ارهـاصـاتـهـا الأولى تبنت الحركة توجهاً تجاه الفقراء و تعزز هذا الاتـجـاه مع ظهور غاندي و صعود اليساريين على المسرح السياسي الهندي حيث سـعـوا إلـى أن تـتـخـذ الـحـركـة مظهراً اشتراكياً كما سعت الحركة بشدة نحو

تحقيق برنامج للاصلاح الزراعي، و ان كانت الاشتراكية لم تتحول إلى هدف رسمي مثار مناقشات ساخنة داخل كان من الحركة و الحزب أثناء فترة الثلاثينات و الأربعينات من هذا القرن.

كذلك اتسمت حركة التحرر في الهند منذ أيامها الاولى بالوقوف بحزم ضد اية محاولة لإنكاء نار الطائفية و رغم تقسيم الهند و ما صاحب ذلك من اضطرابات طائفية عنيفة، فقد اكد الدستور الهندي على الشخصية العلمانية للبلاد دونما انحياز لطائفة دون أخرى، و اتسمت الحركة أيضاً بالنظرة العالمية، و على مر السنين تبني زعماء الحركة رفض الاستعمار أينما كان في العالم و سعوا نحو التضامن مع الحركات المناوئة للاستعمار في كافة أنحاء المعمورة و كانوا حريصين على أن يؤكدوا على ضرورة كره الهنود للاستعمار البريطاني لا ان يكرهوا الشعب البريطاني. و قد ساعد هذا على ان ينالوا مؤازرة عدد كبير من الانجليز و المجموعات السياسية هناك. و هكذا فإن النظرة اللاعنصرية و الرافضة للاستعمار التي تشكل شخصية السياسة الهندية الخارجية تمثل أحد ميرات نضال الهنود ضد الاستعمار.

و ربما يكون من اللائق هنا أن نتوقف بعض الشيء لرصد آراء بعض المدارس التاريخية حول حركة التحرير الهندية، فعلى سبيل المثال نجد المؤرخين من مدرسة كمبريدج ينفون وجود أي تعارض اساسي ما بين مصالح الشعب الهندي و الاستعمار البريطاني، أي انهم ـ سواء بالمواربة أو صراحة ـ ينكرون حقيقة ان هذه الحركة قامت لتعبر عن الرفض الهندي لهذا التناقض الذي خلقه وجود الاستعمار و تنحصر نظرتهم للهند على انها بلد تتالف من خليط من الديانات و الطبقات الاجتماعية ذات المصالح المختلفة، و من ثم لا يعترفون بسعي الهنود ـ من خلال حركتهم ـ إلى إيجاد الامة الهندية و التفاهم

حـول مفهومها. و السؤال الذي يبرز هنا: إذا لم تكن الحركة الوطنية في الهند قد قـامـت لـتـمثل مصالح كافة الشعب الهندي في مواجهة الاستعمار، فاي مصالح كـانت تمثلها اذن؟ و تأتي الاجابة على هذا السؤال من جانب كتاب هذه المدرسة أنـفـسهم حيث يؤكدون على ان هذه الحركة لم تكن حركة شعبية بل نتاج حرص الصفوة في المجتمع الهندي على حماية مصالحهم، اي ان هذه الحركة لم تكن إلا مـجـرد وسيـلـة استـخـدمـتـها جماعات الصفوة لتعبئة الجماهير و اضفاء الـشرعـيـة عـلـى مـصـالحهم ضــد الحكم البريطاني او لصراعهم ضد بعضهم البعض (٤).

و هـكذا تتجاهل هذه المدرسة التاريخية حقيقة استغلال الاستعمار للهند و وقـوفـه عـقـبـة كـؤود فـي سبيل نهضتها، و تنفي عن الحركة صبغتها الشعبية و سعيها نحو التخلص من الاستعمار و إقامة الأمة الهندية المستقلة.

و ثـمـة وجـهة نظر أخرى تبناها مؤخراً مجموعة من المؤرخين، تقول إن الـتـنـاقـض الاسـاسي الذي شهده المجتمع الهندي في ظل الحقبة الاستعمارية تـمـثل بين الصفوة ـ من الهنود و الاجانب ـ من ناحية و بين بقية الشعب الفقير من نـاحـيـة لخـرى، و لـيـس بين الاستعمار و بين الشعب كما يقولون إن الشعب الـهندي لم يتحد يوماً في كفاح موحد ضد الاستعمار بل ينفون من الأساس وجود حـركـة تـحرر. على العكس يؤكد هؤلاء الكتاب أن المجتمع الهندي كان يتقاسمه تـيـاران مـحـددان: الأول مناوىء للاستعمار من جانب الطبقات الفقيرة، و الثاني حـركـة وطـنـيـة "مـزيـفـة" يـتـزعمها الصفوة ـ خاصة القيادة الرسمية لحزب الـمؤتمر و على رأسها ابو الكلام آزاد ـ و كانت هذه الحركة بمثابة غطاء للصراع عـلـى الـسلطة فيما بين هؤلاء الصفوة. و من الملاحظ أن ثمة تماثلاً بين نظرة هؤلاء الكتاب و بين التحليل السابق الذي تبناه مؤرخوا مدرسة كامبريدج.

و نأتي إلى مدرسة تاريخية أخرى، و هي مدرسة المؤرخين الوطنيين و التي مثلها أثناء الفترة الاستعمارية عدد من النشطاء السياسيين منهم لاجبات راي و سوارمدار و مؤخراً جاء من الكتاب من أثرى هذا الاتجاه التاريخي و الذي يعكس وعياً بالجانب الاستغلالي للاستعمار، و إن كانوا جميعاً يتفقون على أن حركة التحرير الوطني جاءت نتيجة لنشر الوعي بفكرة روح القومية أو الحرية و كذلك يتفقون على أن هذه الحركة جاءت تعبيراً عن آمال الشعب. بيد أن نقطة الضعف لأصحاب هذا الاتجاه تتمثل في تجاهلهم - أو على الأقل - تقليلهم من شأن التناقضات الداخلية للمجتمع الهندي من ناحية الطبقات، فهم يتجاهلون حقيقة مؤداها أن الحركة مثلت مصالح الشعب أو الأمة كلها ضد الاستعمار. فقد تم ذلك من منظور طبقي معين و من ثم كان هناك صراع دائم بين مختلف الاتجاهات الاجتماعية و العقائدية للسيطرة على الحركة، كما يلاحظ عدم قيام أصحاب هذا الاتجاه بالتحليل الكافي للجوانب الاستراتيجية و الأيديولوجية للحركة و تبنيهم لموقف الجناح اليميني للحركة و اعتباره مرادفاً لها (٥).

أما عن أسلوب المدرسة الماركسية في تناولها لحركة التحرير الهندية فنجد أنها - على عكس مدرسة كامبريدج - تعترف بالتناقض الأولى الذي حرك هذه الحركة و بعملية إنشاء الأمة الهندية المتتابعة، و على عكس المدرسة الوطنية فإن الماركسيين يأخذون في كامل اعتبارهم التناقضات الداخلية للمجتمع الهندي و لكن من الملاحظ عجز كثير من أصحاب هذه المدرسة عن المزج السليم ما بين تعاملهم مع التناقض الأول ضد الاستعمار و بين المتناقضات داخل المجتمع الهندي ذاته، فيميلون إلى اختزال النضال ضد الاستعمار إلى صراع طبقي أو اجتماعي، كما أنهم يكادون يعتبرون الحركة لكافة طبقات الشعب. كذلك لا نجد لدى معظم الكتاب الماركسيين استقصاء

تاريخياً كاملاً يشمل استراتيجية و برنامجاً ايديولوجياً و أشكال التعبئة الشعبية و أساليب المناورات الاستراتيجية و التكتيكية التي شكلت عمل سنوات الكفاح و المقاومة في حركة التحرير الهندية. و بعد هذه الوقفة القصيرة مع الرؤي المختلفة التي تبناها مؤرخون ينتمون إلى اتجاهات متباينة.. نعود إلى الحدث التاريخي العظيم الذي نحن بصدده الا و هو حركة التحرير الوطني في الهند و التي نتجت في المقام الأول عن التناقض الصارخ ما بين مصالح الشعب الهندي و مصالح الاستعمار البريطاني و الذي أدركه زعماء هذه الحركة - مثل غاندي و آزاد - منذ لحظتها الأولى فقد تبين لهم أن الهند كانت تتخلف اقتصاديا و قد كانوا سباقين إلى وضع إطار نقدي إقتصادي للحركات الاستعمارية إبان القرن التاسع عشر و تمكنوا من إماطة اللثام عن تركيبته المعقدة، كما امكنهم التمييز ما بين السياسة الاستعمارية و حتميات التركيبة الاستعمارية. و تجدر الإشارة إلى أنهم تمكنوا أيضاً تدريجياً من صياغة أيديولوجية واضحة مناوئة للاستعمار، أقاموا على أساسها حركتهم الوطنية، و ذلك من خلال وعيهم بالتجربة الاجتماعية للشعب الهندي باعتبارهم رعايا للإستعمار، و تحديد مصالحهم المشتركة في مواجهة هذا الاستعمار، و كل ذلك ساعد في انتشار هذه الأيديولوجية و هذا النقد الإقتصادي لآثار الاستعمار من خلال ما عرف بالمرحلة الجماهيرية للحركة الوطنية.

كما كان للحركة دورها المحوري في العملية التاريخية التي ظهر فيها الشعب الهندي كامة لها كيانها المحدد، و لقد اقر الزعماء الوطنيون أن الهند لم تكن قد وصلت بعد مرحلة الأمة المكتملة الأركان، و إنما كانت في طور بناء الامة، و كان لحد أهم أهداف الحركة تدعيم وحدة الهنود من خلال توحيد كفاحهم ضد الاستعمار و بعبارة أخرى فان الحركة الوطنية تعتبر نتاجاً لهذه العملية - تكوين الامة - من ناحية و عاملاً نشطاً في حدوثها من ناحية أخرى.

و لقد فشلت حركات المقاومة التي سبقت حركة التحرير الوطني في إدراك ارتباط ظاهرتي الاستعمار و تكوين الأمة و في الحقيقة لم تكن هاتان الظاهرتان ذات وضوح تام يمكن معه إدراكهما على السطح و إنما كان الأمر يتطلب إعمال الذهن و التحليل العميق و في هذا الصدد لعب المثقفون دوراً مهماً في توصيل هذا الإدراك للجماهير و في إيقاظ حسهم الفطري ضد الاستعمار.

و حركة التحرير الهندية كانت ذات استراتيجية كفاح محددة تحركت من خلالها مراحلها المختلفة و امتزجت، و بخاصة بعد عام ١٩١٨م و قامت هذه الاستراتيجية على أساس السعي نحو امتلاك عقول و قلوب الشعب الهندي و كان الهدف من وراء ذلك هو إطلاق سراحهم من قضية الهيمنة الاستعمارية أو القضاء على الأسلوب الذي استخدمه البريطانيون في سبيل إخضاع الهنود لحكمهم، و الذي كان يقوم على الزعم بأن البريطانيين يعملون لخيرهم، و أنهم - أي البريطانيون - لا يمكن قهرهم و لقد اشار غاندي في قصة حياته إلى أن عدم الخوف كان الأساس الذي ارتكن إليه في نشر مبادئه، و لم يكن مقصوراً على الشجاعة البدنية فحسب، بل اعتمد في الأساس على ازاحة فكرة الخوف تماماً من الذهن. و لكن كان الشعور السائد في ظل الحكم البريطاني هو الخوف: الخوف من الجيش و من الشرطة و من عيون المخابرات و الخوف من طبقة المسئولين و الخوف من القانون الذي يعني الكبت و الذهاب وراء القضبان.. و الخوف من وكلاء أصحاب الأراضي و الخوف من المقرضين.. و الخوف من البطالة و الجوع. في مواجهة كل هذا ارتفع صوت غاندي ينادي: لا تخف!(٦)

و تبين أنه في ظل التعامل مع الاستعمار الرابض على صدر الهند جاء الكفاح ضد الاستعمار في المرتبة الأولى و تلاه النضال الاجتماعي و من ثم تم

تحريك الصراع الاجتماعي للوصول إلى حل وسط للتناقض الطبقي و من خلاله قامت كافة الطبقات المعادية بتقديم التنازلات. و من ناحية اخرى فإن الاستراتيجية التي وضعها الوطنيون تراوحت ما بين مراحل النضال الشعبي الحاشد و الذي تجاوز القوانين الموجودة حينئذ و بين مراحل العمل السياسي المحرك للجماهير و لكن في الإطار القانوني و تقبلت هذه الاستراتيجية حقيقة أن الحركات الجماهيرية لها ذروتها و خبوها و إنه ليس من الممكن أن ينخرط الشعب في ظل كفاح ممتد يتطلب تضحيات لا حصر لها. علاوة على ذلك افترضت هذه الاستراتيجية تطور النضال من أجل الحرية من خلال مراحل الحركة المختلفة، و إن كان البلاد لم تصل إلى هذه الحرية إلا في المرحلة الأخيرة. و لقد شكل "العمل البناء" جزءاً مهماً لهذه الاستراتيجية و بخاصة أثناء المراحل الدستورية للحركة و يتمثل هذا التحرك البناء في تدعيم التعليم القومي و وحدة المسلمين و الهندوس و مقاطعة المنسوجات و المشروبات الاجنبية و الارتقاء اجتماعياً بطبقة المنبوذين و أبناء القبائل.

و هنا قد يثور سؤال هو .. ماذا عن دور اللاعنف؟

بداية يمكن القول أن هذا المبدأ لم يكن مجرد عقيدة سياسية تبناها غاندي أو أملتها مصالح الطبقات المالكة، بل إنها شكلت .جزءاً أساسياً لحركة التحرر قامت استراتيجيتها على أساس الاستحواذ على عقول الناس و قلوبهم من خلال حركة شعبية تضمن أكبر تعبئة ممكنة للشعب، كما ارتبطت هذه الاستراتيجية بشكل أو بآخر بالشخصية القانونية المستبدة للدولة الاستعمارية و التي كانت تعمل من خلال بيروقراطية حاكمة و سلطة قضائية تتمتع باستقلالية نسبية و في الوقت ذاته تسن قوانين جائرة تسمح بقدر من الحريات المدنية في الظروف العادية و تحد من هذا القدر في أوقات النضال الشعبي. كما كانت هذه الدولة الاستعمارية تقدم تنازلات دستورية و إقتصادية , إن كانت قد

حرصت على إحكام قبضتها على مقاليد الامور في البلاد. و من هذا المنظور يمكن القول ان الانتقال السلمي للسلطة في الهند عام ١٩٤٧م لم يات مصادفة و لم يكن حلاً وسطاً من جانب قيادة بلغ بها التعب مبلغه، و لكن بالاحرى جاء نتيجة لسياسة غاندي و آزاد و شخصية الحركة الوطنية و الاستراتيجية التي تبنتها، و لإدراك البريطانيين أن الشعب الهندي لم يعد يقبل حكمهم و لم يعد يثق في معاونيهم من الهنود ذاتهم.. و بعبارة أخرى أدرك البريطانيون أنهم خسروا معركة الهيمنة و من ثم قرروا الانسحاب بدلاً من محاولة فرض حكمهم من جديد على تلك البلاد الشاسعة بقوة السلاح الذي لم يعد يجدي.

و يجب أن نعلم أن هذه الحركة كانت ذات صبغة شعبية و أنضوى تحت لوائها عديد من طبقات الشعب الهندي من مسلمين و هندوس، أى أنها لم تكن حركة هيمن عليها البرجوازيون أو انفردوا بها. كما كانت حركة مفتوحة لكافة الافكار الاجتماعية و التاثر بها كما يتضح من شخصيتها الشعبية. و في حقيقة الامر فقد مرت الحركة بتحولات أيديولوجية مستمرة ففي العشرينات و الثلاثينات من هذا القرن قام الشيوعيون و اشتراكيو حزب المؤتمر و الجماعات اليسارية باضفاء التوجه الاشتراكي على الحركة التحررية و على حزب المؤتمر، و يظهر هذا السعى في محاولة تنظيم الفلاحين في تنظيم واحد، و كذلك العمال من خلال الاتحادات العمالية، و الشباب من خلال التجمعات الشبابية و اتحادات العمال. و ثمة مظهر آخر يتمثل في محاولة دفع الحركة لتبنى رؤية اشتراكية للهند الحرة و لقد أصاب هذا المسعى قدراً من النجاح و انتشرت الأفكار الاجتماعية بشكل كبير، و اتجهت الاتحادات الزراعية و العمالية تجاه اليسار، كما اتخذت أفكار غاندي منهجاً راديكاليا و لكن عندما بزغ فجر الحرية لم يتمكن اليسار من تحقيق نجاحه المرجو في فرض سيطرة الأفكار الاشتراكية على الحركة الوطنية و ظلت الرؤية السائدة تتمثل في

الـتـطـور البرجوازي. و هكذا يمكن القول إن نقطة الحركة الأساسية تمثلت في هيكلها الايديولوجي.

اما حـزب الـمـؤتـمـر فلم يكن مجرد حزب بل تطور إلى حركة ضمت بين دفـتـيها أفراداً و جماعات ذات رؤى سياسية و أيديولوجية متباينة، فقد عمل في ظلـه الـشيوعيون جنبا إلى جنب الاشتراكيين. و في الوقت ذاته أظهرت الحركة مـقـدرة بـالـغـة عـلـى الـحـفـاظ على وحدتها رغم التباين داخلها، و لقد استفاد الـجـمـيع من الفرقة المدمرة التي حدثت عام ١٩٠٧م و دعتهم إلى التضامن حتى في أعتى الأزمات.

و بـالـطـبـع كـانـت روافد أخرى تصب في النهر المتدفق للحركة الوطنية الـهـنـديـة مـنـهـا الـحـركـات القبائلية و الزراعية و حركة المتطرفين الثوريين و حركة الحكم الوطني و حركة إصلاح المعبد و لم تنفصل معظم هذه الحركات عن حـزب الـمـؤتـمـر و إن كانت خارجه و لم تكن قوى معارضة لهذا الحزب الذي كـان بـكـل سـمـاتـه الايـجابية و السلبية المحرك الفعلي للشعب في كفاحه ضد الاستعمار.

فـفـي حـقـيـقة الأمر ارتبطت هذه الحركات بعلاقة وثيقة بحزب المؤتمر و لـم تـكن فـي أيـة مـرحـلة بدائل عنه و بالأحرى ذابت جميعها في بوتقة حركة الـتـحـرير الوطني و يُمكن القول و حسب أن الحركات التي شذت عن هذا الإطار تـمـثـلـت فـي الـحـركـات الـطـائـفـيـة الـتـي لم تكن ذات صبغة وطنية مناوئة للاستعمار.. بل على العكس أظهرت سيولاً تجاه القوى الاستعمارية (٧).

و لـقد نمت الحركة الوطنية الهندية كواحدة من أعظم الحركات الشعبية فـي تـاريـخ عـالـمـنـا، و اسـتـمـدت قـوتـها و بخاصة من بعد عام ١٩١٨م من روح الـتضحية و التصميم التي اظهرتها الجماهير حيث تم حشد ملايين من الرجال

و النساء بطرق مختلفة و من ثم احتفظوا للحركة بقوتها و عنفوانها من خلال عزمهم الذي لا يلين. و هكذا تحولت الحركة من مجرد حركة لطبقة المثقفين و الوطنيين إلى حركة نجحت في تعبئة الشباب و النساء و البرجوازيين الصغار في الحضر و فقراء الريف و المدينة على حد سواء و الحرفيين و الزارعيين و العمال و التجار و الراسماليين و عدد كبير من صغار الملاك، و في كافة مراحلها و اشكالها اعتمدت الحركة على الأساليب السياسية الحديثة فلم تسع إلى إيقاظ وعي الناس القائم على الدين او الطبقة أو المكان أو الولاء للحكام التقليديين أو الكبار و إن كانت في بعض الأحيان قد لجأت إلى الإطار الطبقي في القرى لفرض النظام داخل حركة لا تقوم في اساسها أو في مطالبها على النظام الطبقي.. و حتى في سعي الحركة نحو التطور لم تكتف بالوعي الموجود انذاك بل بذلت جهوداً حثيثة من اجل الحركات النسائية و العمالية و الزراعية و تجمعات الطبقات الدنيا، فعلى سبيل المثال اندمجت داخل الحركة حركات الاصلاح الاجتماعي و الديني التي ظهرت أثناء القرن التاسع عشر كجزء من محاولة حماية الثقافة الهندية من قبضة الاستعمار، و لكن الحركة فشلت بعض الشيء في مواجهة تحدى الشيوعية و لم تتمكن من تحقيق الدمج الكامل للكفاح الثقافي داخل بوتقة النضال السياسي رغم جهود غاندي في هذا الإطار.

المقاومة السلبية: اللاعنف عند غاندي:

تعد شخصية غاندي من الشخصيات الثرية و التي كان لها بليغ الأثر في تشكيل الشخصية الهندية بملامحها المميزة و الوصول بها إلى مصاف العالمية فلا تكاد تذكر الهند إلا و يذكر غاندي. فهو الزعيم السياسي المحنك الذي زلزل بمغزله أركان الإمبراطورية البريطانية أقوى الامبراطوريات انذاك.

و تعد سياسة المقاومة السلبية "ساتيا جراها" أو اللاعنف هي حجر الزاوية في السياسة التي اخترعها و انتهجها في سبيل كفاحه لحصول الهند

على استقلالها، و قد شرع غاندي في تطبيق سياسته هذه عندما كان في جنوب افريقيا و سار غاندي على مبادىء هذه السياسة منذ عام ١٩٢١م، و حتى استقلت الهند في عام ١٩٤٧م. و قد تعددت الأسماء لهذه السياسة التي اتبعها غاندي فقد اطلق عليها البعض المقاومة السلبية و اللاعنف في حين اطلق عليها البعض الآخر اسم العصيان المدني و عدم التعاون.

و في الصفحات التالية سوف اتحدث عن المخاض الأول لفكرة المقاومة السلبية و كيف و أين ولدت؟ و أهم سماتها و ما هي روافدها الأولى و العمل بها و هل نجحت أم لا؟ و النظر فيما تركته من نتائج و لماذا نشأت هذه الفكرة و مفهومها و هل كان لها تأثير على مقاومة الاستعمار البريطاني. و ماذا قال غاندي عن هذه السياسية و دوافعه لها و لتطبيقها؟ ثم ما هو دور زعماء المسلمين و على رأسهم مولانا أبو الكلام آزاد في فكرة المقاومة السلبية و هل كانت هذه الفكرة جديدة أم سبق غاندي إليها أحد من المسلمين؟ و ماذا عن حركة عدم التعاون أو العصيان المدني التي نادى بها المسلمون قبل غاندي؟ و هل نجحت الفكرة أم أخفقت؟ و ما الجهود التي بذلها غاندي و آزاد للتقريب بين هاتين الفكرتين اللتان تؤديان في النهاية إلى هدف واحد و هو استقلال الهند؟ و أوجه الشبه و الاختلاف بين غاندي و آزاد في فهم سياسية المقاومة السلبية و عدم التعاون؟ ثم أخيراً الأثر الاقليمي و العالمي لهذه الفكرة؟

مولد فكرة المقاومة السلبية و سبب تسميتها:

ولدت فكرة المقاومة السلبية في جنوب افريقيا و يقول غاندي في كتابه "في سبيل الحق"(٨) عن ظهور هذه الفكرة و كيف وجدوا لها هذا الإسم: كنت في طريق عودتي بعد أداء واجباتي المتصلة بثورة الزولو حين قابلت الأصدقاء من مزرعة فينكس،(٩) ثم ذهبت إلى جوها نسبرج فقرأت و أنافيها في عدد

خاص من الجريدة الرسمية صدر في ٣٢ اغسطس سنة ١٩٠٦م مشروع قانون لو استكمل طريقه حتى يصير قانوناً لكان معناه القضاء على الهنود في جنوب افريقيا قضاءً مبرماً و ضياع مستقبلهم ضياعاً لا رجعة فيه. كان هذا القانون المقترح يفرض على كل هندي، رجلاً أو إمراة او طفلاً بلغ الثامنة من عمره ممن لهم حق الاقامة في ترنسفال ان يسجل اسمه أو اسمها لدى مسجل شئون الآسيويين و ان يحصل على بطاقة بذلك و كان يتعين على كل من يتقدم بطلب التسجيل فيما كان يقضي به القانون الجديد أن يسلم بطاقته القديمة للمسجل و أن يدون في طلبه الجديد اسمه و محله و للمسجل ان يكسب ما يعن له من ملاحظات مميزة يراها في صاحب الطلب و ان يأخذ إلى جانب ذلك بصمات اصابع يده جميعاً و كان مشروع القانون ينص كذلك على أن كل هندي لا يتقدم بطلب التسجيل قبل انقضاء فترة معينة يفقد حق الاقامة في الترنسفال، فضلاً عما كان ينطوي عليه ذلك من مخالفة للقانون قد تنتهي بصاحبها إلى الحكم عليه بالغرامة أو السجن بل و بالطرد من البلاد حسب ما يتراءى للمحكمة. و كان على كل هندي يسير في الطريق العام أن يبرز بطاقته متى طلب منه ذلك، كما كان لرجال الشرطة حق دخول المساكن الخاصة لتفقد هذه البطاقات. و الحق انني لم أصادف في حياتي تشريعاً مثل هذا التشريع قصد به جماعة من الاحرار في أي بلد من البلاد. و عقدنا في اليوم التالي اجتماعاً صغيراً ضم اصحاب الكلمة بين الجالية الهندية، فشرحت لهم هذا القانون كلمة كلمة فكان ذلك صدمة لهم بقدر ما كان صدمة لي و أدرك الجميع خطورة الموقف و قرروا عقد اجتماع عام.

و عقد الاجتماع بالفعل في يوم ١١ سبتمبر سنة ١٩٠٦م و اتخذت فيه قرارات كان اهمها القرار الشهير الذي اصبح يعرف فيما بعد "بالقرار الرابع" الذي تعهد

فيه عهداً لا حنث فيه ليرفضن الخضوع لهذا القانون المقترح لو قدر له أن يصبح قانوناً نافذ المفعول و ليتحملن في سبيل ذلك أشد العقوبات.

. و حار المجتمعون في الاسم الذي يطلقونه على هذه الحركة إلى أن اقترح ما جنلال غاندي كلمة "سادا جراها" و معناها "الثبات على الخير"، و أعجبتني هذه التسمية و إن لم تؤد كل المعنى الذي كنت أ بده، و من ثم فقد استبدلت بها كلمة "ساتيا جراها" فان "ساتيا" (الحق) تنتطوي كذلك على المحبة و "جراها" (الصلابة) توحي بالقوة. و هكذا أصبح يطلق على حركتنا كلمة "ساتيا جراها" أى القوة المنبعثة من الحق و من المحبة، أو بعبارة أخرى الحركة المنزهة عن كل عنف و استغنيت بذلك عن استعمال عبارة "المقاومة السلبية".

و قد فصل غاندي القول حول تأصيل هذا المصطلح السياسي الهام الذي ميز فيما بعد سياسة غاندي و عرفه الناس به و ذلك في كتابه "قصة اللاعنف في جنوب افريقيا". يقول: (١٠) "و لم يعلم أحد منا أي اسم ينبغي أن نطلقه على الحركة. ثم إنني اصطنعت في وصفها تعبير "المقاومة السلبية" (Passive Resistance) و لم أدرك آنذاك مضامين "المقاومة السلبية" ادراكاً كاملاً. كل ما عرفته هو أن مبدأ جديداً ما، قد خرج إلى حيز الوجود و حين استمر الصراع ادى تعبير "المقاومة السلبية إلى شيء من الالتباس، و بدا لنا أن من المعيب أن لا يعرف هذا النضال العظيم إلاّ باسم انجليزي و فوق هذا فان تلك الصيغة الأجنبية ما كان لها أن تدرج و تروج عند افراد الجالية. من أجل ذلك أعلنا في صحيفة "الرأى الهندي"(١١) عن جائزة تمنح للقارىء الذي يقترح خير اسم لنضالنا و هكذا تلقينا عدداً من المقترحات. و كان معنى النضال قد شرح آنذاك شرحاً كاملاً على صفحات "الراى الهندي" و من هنا كان بين أيدي المتبارين مادة كافية يفيدون منها في محاولاتهم و كان شرى ماجنلال غاندي واحداً من

المتبارين، و لقد اقترح لفظة "سادا جراها" Sadagraha، و تعني "الثبات دفاعاً عن قضية عادلة". و اعجبتني اللفظة، و لكنها لم تعبر ادق التعبير عن كامل المعنى الذي اردت ان تفيده، من اجل ذلك حرفتها إلى ساتيا جراها، فالحقيقة (ساتيا Satya) توحي بالحب، و الثبات و (جراها Graha) يولد القوة و في الامكان اعتباره بهذا الوصف مرادف لها. و هكذا شرعت ادعو الحركة الهندية "ساتيا جراها"، يعني "القوة المنبثقة عن الحقيقة و الحب" أو اللاعنف و أقلعت عن اصطناع تعبير "المقاومة السلبية" في ما يتصل بها، و غاليت في ذلك غلواً كبيراً، فكنا كثيرا ما نجتنبه حتى في كتاباتها الانجليزية و نصطنع مكانه كلمة (ساتيا جراها)".

تلك هي اذن حكاية ميلاد الحركة التي عرفت بعد بالساتيا جراها (اللاعنف)، و حكاية ميلاد الكلمة التي اصبحت علماً عليها.

الفرق بين المقاومة السلبية و اللاعنف و روافد الفكرة:

و لكن هل يوجد هناك فروق جوهربة بين "المقاومة السلبية" و "اللاعنف"؟ يمكننا الاجابة مبدئياً بنعم رغم أن معظم من كتب عن هذين المصطلحين لا يكاد يفرق بينهما من الناحية اللغوية و الناحية الاصطلاحية على الرغم من أن غاندي قد فرق بين المصطلحين و انه كان يفضل استعمال المصطلح الثاني "اللاعنف".

لقد راح بعض الأوربين البارزين يعنون بالحركة و يتابعون تقدمها و كان بين هؤلاء السيد هوسكن Hosken من جوهانسبرج و كان طوال حياته مبرءاً من عصبية اللون و لكن اهتمامه بالقضية الهندية تعاظم بعد اعلان الساتيا جراها (اللاعنف) و قد عبر أوربيو جوهانسبرج عن رغبتهم في سماعي اتحدث إليهم و عقد اجتماع لهذا الغرض و قد هنى السيد هوسكن و قدم الحركة التي امثلها

فـقال فيما قال: "لقد لجأ هنود الترانسفال إلى المقاومة السلبية بعد أن أخفقت جـمـيع الوسائل الاخرى في رفع الحيف عنهم. لقد حرموا حق الاقتراع. و ليسوا من حـيث الـعـدد، إلآ قـلـة قليلة. إنهم مستضعفون و ليس لديهم ايما سلاح. من اجل ذلك نزعوا إلى المقاومة السلبية التي هي سلاح الضعيف".

إلّا أن الـمـهـاتما غاندي لم يعجبه هذا التقديم و اضطرب له كثيراً. يقول: "الـواقـع أن هـذه الـمـلاحـظات فاجأتني، فكان من نتائج ذلك أن اتخذ الـخطاب الـذي اعـتـزمت القاءه وجهاً آخر مختلفاً بالكلية. لقد انكرت ما ذهب إليه السيد هـوسـكن فـعرفت مقاومتنا السلبية بقولي إنها "قوة روحية" ذلك بأني رأيت، في ذلك الاجـتـماع، أن اصطناع تعبير "المقاومة السلبية" خليق بأن يؤدي إلى سوء تفاهم رهيب، و لسوف أحاول هنا أن أميز بين المقاومة السلبية و القوة الروحية ببسط الحجة التي ادليت بها في ذلك الاجتماع و توسيعها زيادة في الايضاح(١٢).

انـا لا أدري مـتـى اسـتـعملت عبارة "المقاومة السلبية" أول ما استعملت، فـي الـلـغـة الانجليزية و من الذي استعملها و لكن العرف جرى عند الانجليز بأن لا تـعـمـد الأقلية الصغيرة ـ إذا ما ساءها تشريع بغيض ما ـ إلى الثورة، مجتزئة بالقيام بخطوة سلبية أكثر اعتدالاً، فهي تعلن عزمها على عدم الانصياع للقانون و تـعـرض نفسها للعقوبات التي يستحقها المتمردون على أوامر السلطة. فحين أقـر الـبـرلـمـان الـبـريـطـانـي "قـانـون التعليم" أعلن "الـخارجون على الكنيسة الانـجـلـيـزية" Non-Conformists المقاومة السلبية بزعامة الدكتور كليفورد Clifford و الـحـركـة الـعظيمة التي قامت بها نساء بريطانية ابتغاء الفوز بحق الاقتراع عدت عند القوم مقاومة سلبية أيضاً و إنما كان السيد هوسكن يفكر في هـاتـين الـحـركـتـين عـنـدمـا اعـتـبـر المقاومة السلبية سلاح الضعيف أو الذي لا صوت له لقد كان للدكتور كليفورد و أصدقائه صوت في البرلمان، و لكنهم كانو أقـلـيـة فـيـه و من هـنـا لـم يـسـتـطـيـعـوا أن يـحولوا دون إقرار قانون التعليم.

و بعبارة أخرى كانوا ضعافاً من حيث العدد. و إذا كانوا لم يتخذوا العنف وسيلة إلى تحقيق أهدافهم فليس مرد ذلك إلى انهم كانوا لا يرون أي أمل لهم في النجاح بقوة السلاح.

لكن القوة البهيمية لم يكن لها أيما محل في الحركة الهندية بأية حال. أن أصحاب حركة اللاعنف لم يصطنعوا مهما كانت الالام التي قاسوها شديدة ـ القوة البدنية قط، و إنما احجموا على اصطناعها على الرغم من سنوح بعض المناسبات التي كانت تتيح لهم اللجوء إليها على نحو فعال. فعلى الرغم من ان الهنود لم يتمتعوا بحق الاقتراع و على الرغم من ضعفهم فإن هذين الاعتبارين لم يكن لهما أي علاقة بتنظيم الساتيا جراها (اللاعنف). و لست أريد بذلك القول أن الهنود كان خليقاً بهم أن يلجأوا إلى العنف حتى و لو ملكوا أسلحة أو تمتعوا بحق الاقتراع. و لو قد كانوا يملكون أسلحة، إذن لفكر الجانب الآخر مرتين قبل مناصبتهم العداء. و إذن ففي استطاعة المرء أن يدرك أن الأقوام التي تملك أسلحة تتاح لها مناسبات أقل للجوء إلى العنف. أن ما أقصد إليه هو أن في استطاعتي أن أوكد أنه لم يكن ثمة، عند تنظيم الحركة الهندية، اقل تفكير في اصطناع المقاومة المسلحة أو في إمكان اصطناعها فالساتيا جراها (اللاعنف) قوة روحية خالصة، و كلما كثرت المحاولات لاصطناع السلاح أو القوة البدنية او القوة البهيمية، قلت إمكانية اصطناع القوة الروحية. فهذه في نظري قوى عدوانية خالصة و لقد كنت أعى هذه الصفة العدوانية أكمل الوعي حتى عند بزوغ فكرة اللاعنف (١٣).

و كل ما يهمني الآن هو أن أنص على الفرق بين المقاومة السلبية و الساتيا جراها (اللاعنف)، و لقد رأينا أن ثمة فرقاً كبيراً و جوهرياً بين الإثنين و إذا كان بعض الذين يدعون أنفسهم مقاومين سلبيين او ساتيا جراهيين يعتقدون ـ من غير أن يفهموا هذا الفرق ـ أن المقاومة السلبية و الساتيا جراها

شيء واحد فعندئذ يكونون قد أساءوا فهم كل منهما اساءة تؤدي إلى عواقب مشؤومة و لقد كان من نتائج استعمالنا تعبير "المقاومة السلبية" في جنوب افريقيا أن القوم بدلاً من أن ينسبوا إلينا شجاعة المناضلات من منح المرأة حقوقاً سياسيةً و روح الفداء عندهن، اعتبرونا خطراً على الأموال و الانفس شأن اولئك المناضلات، لقد توهم السيد هوسكن اننا ضعاف إن للإيحاء قوة جبارة تنتهي بالمرء آخر الأمر إلى أن ان يصبح كما يتوهم نفسه، فإذا واصلنا نحن الاعتقاد أننا ضعاف عاجزون و من أجل ذلك نقاوم مقاومة سلبية فعندئذ لن تجعلنا مقاومتنا أقوياء أبداً.

و ما أن تسنح أول فرصة حتى نطرح المقاومة السلبية بوصفها سلاح الضعيف. أما إذا كنا ساتيا جراهيين (لا عنفيين) و أخذنا بأسباب اللاعنف و نحن نؤمن بأننا أقوياء فعندئذ ينشأ عن ذلك نتيجتان اثنتان. من الممكن أن نصبح أقوى فأقوى يوماً بعد يوم و بتعاظم قوتنا، يصبح لاعنفنا ايضاً أكثر فعالية، و لا نضطر أبد الدهر إلى التماس فرصة نطرحه فيها، و في حين لا يوجد مجال للحب في المقاومة السلبية، نجد أن البغض ليس فقط لا مكان له في الساتيا جراها (اللاعنف) بل إنه انتهاك فاضح لمبدأها الأساسي، و عندما يتسع المجال في المقاومة السلبية لاصطناع السلاح عندما تسنح فرصة مواتية يحرم اصطناع القوة البدنية في الساتيا جراها (اللاعنف) حتى في أنسب الظروف و اكثرها مواتاة. و كثيراً ما ينظر إلى المقاومة السلبية كمرحلة استعداد لاصطناع القوة و المقاومة السلبية قد تعلن جنباً إلى جنب مع الاحتكام إلى السلاح على حين أن الساتيا جراها (اللاعنف) لا يمكن أن تتخذ، بأية حال، سبيلاً ممهداً لاصطناع القوة و المقاومة السلبية قد تعلن جنباً إلى جنب مع الاحتكام إلى السلاح. على حين أن الساتيا حراها و القوة البهيمية بوصفهما نقيضين متنافيين ـ لا يجتمعان أبد الدهر. و قد يصطنع المرء

اللاعنف مع أقرب الناس إليه و أعزهم لديه، على حين ان المقاومة السلبية لا يمكن أن تصطنع مع هؤلاء إلّا اذا كفوا عن ان يكونوا أعزاء و إلّا اصبحوا موضع بغضنا و كراهيتنا. و في المقاومة السلبية نجد فكرة إنهاك الفريق الآخر ماثلة ابداً و نجد استعداداً متواقتاً لتحمل جميع المشاق التي ينزلها بنا مثل ذلك النشاط في حين لا تنطوى الساتيا جراها على اقل تفكير بإيذاء الخصم. ان الساتيا جراها تفترض الفوز على الخصم عن طريق إنزال المرء ضروب الاذى بنفسه هو. ذلك هو الفرق مابين القوتين و كان غرضى هنا أن اظهر ان الساتيا جراها تختلف اختلافاً جوهرياً عما يعنيه الناس (١٤).

سياسة "المقاومة السلبية" بين جنوب افريقيا و الهند:

(أ) جنوب افريقيا: بدات فكرة "المقاومة السلبية" عند غاندي في جنوب افريقيا كما أسلفنا و يمكن تقسيم فترة كفاح غاندي في سبيل تنفيذ هذه السياسة إلى مرحلتين: ـ

ـ المرحلة الأولى: و تمتد من عام ١٨٩٣ حتى عام ١٩١٤م في جنوب افريقيا.

ـ المرحلة الثانية: و تمتد من عام ١٩١٤ و حتى ١٩٢٢م في الهند.

لقد استقر في جنوب افريقيا عام ١٨٩٠ ـ ١٨٩١ مائة و خمسون ألف هندي تقريباً، قطن معظمهم "ناتال" و ما لبث السكان البيض أن تبرموا من وجودهم كما شجعت الحكومة على هذا التبرم باتخاذ عدة اجراءات عميقة لمنع هجرة الآسيويين و اكراه القاطنين منهم على مغادرة جنوب افريقيا فأمست حياة الجالية الهندية لا تحتمل من جراء هذا الاضطهاد المنظم ـ فلقد اثقلت السلطات كاهلهم بالضرائب الباهظة و لخضعتهم أعمال الشرطة المخزية و الاستفزازات المتنوعة و في عام ١٨٩٣م استدعى غاندي إلى بريتوريا لقضية مهمة و لم يكن حتى ذلك الوقت على اطلاع بأوضاع بنى جلدته في جنوب

افريقية، و لم يمض حين حتى وجد نفسه هدفاً لاشنع الهجمات، و هو الهندوسي النبيل الذي استقبلته انجلترا و أوربا بكل حفاوة و احترام و الذي اعتبر البيض انذاك أصدقاءه الطبيعيين. فقد طرد من الفنادق و من عربات النقل و أهين و ضرب و أكل في "ناتال". و كان يريد أن يعود إلى الهند إلّا ان ارتباطه بعقد تجاري لمدة عام في جنوب افريقيا اضطره للبقاء، كما أن هذه الفترة الطويلة التي قضاها هناك تحت هذه الألوان من الضغط علمته فن ضبط النفس، فصبر على أمل إنهاء أعماله التي تعهد بانجازها لتتسنى له العودة الحميدة إلى وطنه.

و فيما كان على وشك الرحيل علم ان حكومة جنوب افريقية تنوى اصدار تشريع يحرم حق الاقتراع على الهنود جميعاً و كانوا عاجزين عن الدفاع عن انفسهم إذ أنهم كانوا غير منظمين إذ لا قائد لهم و لا مرشد. و شعر غاندي عندئذ أن من واجبه الدفاع عنهم و غدت قضية الهنود المحرومين قضيته الأولى و شغله الشاغل. و منذ ذلك الوقت بدأ غاندى الصراع الملحمي بين الروح اللاعنفية و سياسة المقاومة السلبية التي حملها غاندي من جهة و بين السلطة الانجليزية و القوة الوحشية من جهة أخرى و استطاع أن يربح في النهاية المعركة التي خاضها بهذا الشأن رغم المعارضات العنيفة التي لقيها. و أخذ بتوقيع آلاف العرائض، و نظم "المؤتمر الهندي" في "ناتال" و أنشأ جريدة "الرأى الهندي" التي كانت تصدر باللغة الانجليزية و بثلاث لغات هندية أخرى. و ترك العيش السخي ليحيا حياة المضطهدين الهنود. و يشاركهم في محاكماتهم و يعلمهم بالتالي مبدأ اللاعنف في المقاومة (١٥).

و قد انشا عام ١٩٠٤ مستعمرة "فينكس" الزراعية قرب "دربن" بناء على أفكار تولوستوى (١٦).

يقول غاندي: (١٧) لقد كان هدفنا الاساسي من وراء ذلك كله أن نجعل

مزرعتنا خلية تنبض بالحياة و تفيض بالنشاط الزراعي و الصناعي، فنوفر مالنا و نجعل من النزلاء جماعة تسد حاجتها بنفسها حتى إذا حققنا ذلك استطعنا أن نقاوم حكومة الترنسفال إلى اقصى حدود المقاومة".

و في عام ١٨٩٩م و خلال حرب البوير، نظم غاندي لجنة اسعاف هندية لمساعدة الجرحى و نقلهم إلى المستشفيات، فكوفيء مرتين على شجاعته و على خوضه خطوط النار لانقاذ المصابين.

و عندما انتشر الطاعون في "جوهانسبرج" عام ١٩٠٤ افتتح غاندي مستوصفاً. و في عام ١٩٠٨م حين ثار أهالي ناتال، نظم جماعة للانقاذ و ترأسها فاثنت عليه حكومة "ناتال". و مع ذلك تم اعتقاله عام ١٩٠٨ و كان جوابه الوحيد على العنف الذي قوبل به في جنوب افريقيا، اصدار كتيبه الشهير "الحكم الذاتي الهندي" الذي نشر عام ١٩٠٨م و الذي يعتبر دستور الحب البطولي. و قد دام صراع غاندي المرير مدة عشرين عاماً و في عام ١٩٠٦ سنت حكومة جنوب افريقيا القانون الآسيوى الجديد بالرغم من معارضة أحرار الانجليز له و هذا ماحدا بغاندي لان ينظم حركة اللاعنف على نطاق واسع (١٨).

تطبيق سياسة جراها (المقاومة السلبية) في ناتال:

و السؤال الذي يطرح نفسه هنا هل تم تطبيق سياسة المقاومة السلبية على أرض الواقع و مدى تاثير هذه السياسة في الحكومة الانجليزية و هل انتصرت في النهاية ام لا؟

لقد حدثت مظاهرات واسعة النطاق في "جوهانسبرج" في أيلول من عام ١٩٠٦م فاجتمع الهنود و اقسموا على المقاومة السلبية، و تكاتفت العروق و الأديان و الطبقات أثرياؤهم و فقراءهم جميعاً، بحماس مشترك متحدين لحل هذه القضية. و ألقى الآلاف منهم في السجون و لما لم تتسع السجون لجموعهم

القس بهم في المناجم و كان نصيب غاندي السجن عدة مرات بينما استشهد لآخرون، و اتسعت الحركة فامتدت من "الترانسفال" إلى "ناتال" عام ١٩١٣م و قد كانت هذه الاضطرابات الواسعة، و الاجتماعات الجماهيرية و مسيرات الفئات الهندوسية في الترانسفال مثار الفزع و هياج الرأى العام في افريقيا و آسيا حيث احتدت الهند و سخطت و اضطر الشعب الهندي نائب الملك اللورد "هارينك" إلى تقديم احتجاج ضد حكومة جنوب افريقيا (١٩).

و يقول غاندي عن الأسباب التي دعته إلى تطبيق سياسة المقاومة السلبية في ناتال:

"وقعت حادثة اضطررنا معها إلى تطبيق مبدأ الساتيا جراها (المقاومة السلبية) في ناتال عقب مغادرة مستر "جوكهال" لجنوب افريقيا، و ظن جوكهال أن ضريبة الثلاثة جنيهات سوف تلغى في ظرف سنة و أن القانون بالغائها سوف يعرض على برلمان اتحاد جنوب افريقية في الدورة المقبلة. و لكن على الضد من ذلك صرح جنرال "سمطس" أن الحكومة لا تستطيع أن تتقدم بقانون يرمى إلى الغاء هذه الضريبة مادام الاوربيون في جنوب افريقيا يعارضون الغاءها.

و اصبح من المستحيل علينا أن نغض عن اهانة تلحق بوطننا و لذا دب فينا الشعور بأن على الذين يقومون بحركة الساتيا جراها أن يدخلوا ضريبة ثلاثة جنيهات في برنامجهم و ما دامت هذه الضريبة قد دخلت ضمن الأغراض التي نسعى إليها من وراء المعركة، فان الاجراء ذوى العقود لابد أن ينضووا تحت لواء "الستيا جراهيين" و يشتركوا في الحركة بقلوبهم (٢٠).

و نتيجة لهذه السياسة التي اتبعها غاندي اعترف الجنرال سميث، الذي كان اعدى أعداء الهنود بعد ذلك بخمس سنوات إى في عام ١٩١٤م، و رحب بالغائها، كما صدر قانون بالغاء رسم الثلاثة جنيهات على الرؤوس عام ١٩١٤م، في

الوقت الذي فتحت فيه "ناتال" أبوابها لتسجيل الهنود الراغبيين بالاستقرار هناك، كعمال أحرار. و هكذا انتصرت حركة اللاعنف بعد مضي عشرين عاماً من التضحيات(٢١).

و يتحدث غاندي عن نهاية مرحلة كفاحه في جنوب افريقيا و النصر الذي أحرزه سياسته "المقاومة السلبية": "و هكذا انتهت حركة الساتيا جراها الكبرى بعد ثماني سنوات من الكفاح، و أخذ السلام يرفرف على حياة الهنود في جنوب افريقيا فابحرت في ١٨ يوليو سنة ١٩١٤ عائداً إلى الهند عن طريق انجلترا ينتابني شعور مزدوج من السرور و الحزن - سرور بعودتي إلى وطني بعد غيبة استمرت سنوات طويلة و رغبتي في خدمته، و حزن على فراقي لجنوب افريقية بعد أن قضيت فيه واحداً و عشرين عاماً من حياتي أشارك الناس فيه كثيراً من التجارب الانسانية حلوها و مرها"(٢٢).

(ب) **الهند:** عاد غاندي إلى وطنه بعد أن مكث في افريقيا الجنوبية واحداً و عشرين عاماً، و كان يجهل الوضع الراهن في الهند و التطورات التي طرأت عليها لطول اقامته في المهجر بعيداً عن بلاده و عن قومه فطفق يراقب الاحوال باهتمام شديد، آخذاً على نفسه الا ينتظم في الحركة السياسية إلا بعد أن يطوف في الهند سنة على الأقل يرى فيها مواطنيه، و الذي لا يمكن أن تصان معه كرامة أو شرف أو إنسانية.

لقد دعى مرة إلى مقاطعة شمبران، فهاله الظلم الذي ينزله ملاكو الأرض الأغنياء بجماهير الفلاحين العائشين في أكواخ حقيرة قذرة لا تدخلها الشمس و قد عششت فيها الأمراض و الجراثيم و تحرى عن الأسباب الرئيسية لهذه الحالة المريعة، فرأى أن أكبر بواعثها قانون اقطاعي يفرض ضريبة فادحة على المحصول لمصلحة الملاك، فجعل يخطب الفلاحين منبهاً إلى حقوقهم، داعياً

إيـاهـم إلى المطالبة بها بشجاعة و حزم فغضب الملاك و طلبوا من السلطة أن تـكـف عـنهم هذا الرجل الذي يثير جموع الفلاحين النائمين على الضيم فانذرته الـشرطة فأبى أن يغادر المقاطعة فقبض عليه و قدم للمحاكمة فثار الفلاحون لـذلك و أعـلـنوا الـعـصيان المدني الذي كان قد دعاهم إليه و تحرج بذلك موقف الـسـلـطـة، فـطـلـب المدعي العام تأجيل المحاكمة تفادياً للفتنة و لكن غاندي عـارض الـتـأجـيل و اعترف بتهمة التحريض الموجه إليه، و طلب معاقبته على ذلك إن كـان الانـصـاف للمظلومين جريمة تستحق العقاب، غير أن القاضي أجل اصـدار الـحـكـم و أفـرج عن غـانـدي و لم يبرح غاندي تلك المقاطعة، و لم يكف الـفلاحون عن عصيانهم إلاّ عندما ألغي ذلك القانون الجائر بعد أيام معدودة. و لم تكن الحرب العالمية الأولى قد نشبت بعد، فلما اشتعلت نيرانها و سمتها انجلترا "حـرب الـحـقـوق" خـدع غـانـدي مثلما خدع كثيرون غيره، بالوعود التي أغدقتها الـدول الـمتحالفة على الشعوب المستضعفة و الأمم المضطهدة و في طليعتها الـهـنـد الـتـي مـنـيـت بـالآمـال الجسام و أوهمت بأن الاستقلال الذي تطمح إليه سيكون من ثمار النصر في تلك الحرب.

فـأخـذ غـانـدي يـدعـو الهند، كما دعاها غيره من الوطنيين، إلى مساعدة انـجلترا في حربها على المانيا و الدول الموالية لها معلناً نفسه بأن تهب انجلترا اسـتـقـلالـهـا، و لـكن ما كادت الحرب أن تنتهي بانتصار انجلترا و حلفائها حتى نـكـثـت بـالوعود التي قطعتها لها، مثلما حنثت بالوعود التي قطعتها لغيرها من الأمـم، بـل كـشـفـت قوانين رولات التي عرضت في ٢ شباط سنة ١٩١٩م عن عزمها على أن تعود بالهند القهقرى(٢٣).

لـقـد انـكر غاندي موقف انجلترا من الهند و اخلافها بوعودها، فقد رأى أن سـلـطة البريطانيين في الهند قائمة على تعاون جميع الطبقات معهم، فإذا أمكن سـحـب هـذا الـتعاون لم تستطع الحكومة البقاء و قضي الأمر، و أدرك غاندي أن

هذا البرنامج لسحب التعاون لا ينجح في دولة يبلغ تعداد سكانها أربعمائة مليون إلّا اذا انتبه الناس من غفلتهم و استيقظوا في رقادهم، و انه لابد لهم أن يستشعروا الدافع الأدنى إلى العمل، و أن الحركة لابد أن تنظم تنظيما دقيقاً، و أن تقوم على مبدأ يفهمه الجميع، و قد اعتقد غاندي انه وجد المبدأ في سياسة اللاعنف و كان الراى العام الإسلامي في ذلك الوقت ثائراً على الحكومة البريطانية لمضيها في تقسيم تركيا بين الحلفاء الغربيين، و هاج المسلمون الهنود و ماجوا مطالبين بالمحافظة على الخلافة و قد قبل غاندي ذلك وعده من برنامجه القومي.

و قد مرت حركة عدم التعاون تحت قيادة غاندي بثلاث مراحل، المرحلة الأولى مرحلة تحالفه مع الزعماء المطالبين بالمحافظة على الخلافة، و بدئه الحركة و جعلها حركة شعبية قوية، و كانت هذه المرحلة فيما بين سنة ١٩٢٠ و سنة ١٩٢٤م، و المرحلة الثانية للحركة بدأت بالتقدم في داندى و هي من سنة ١٩٢٩ إلى سنة ١٩٣٢م و المرحلة الثالثة مرحلة "اخرجوا من الهند" و كانت في سنة ١٩٤٣م. و قد توجت الحركة الغاندية بالانتصار في اغسطس ١٩٤٧م(٢٤).

و الواقع أن سياسة المقاومة السلبية (اللاعنف) التي اختارها غاندي في كفاحه ربما كانت أصعب مسلكاً من طريق العنف، لمن يقدم على انتهاجها بالروح التي كانت تجيش في صدره ذلك أن اللاعنف في راى غاندي هو القوة المادية بقوة الارادة و العزيمة و الروح .. " و ما كان اللاعنف خضوعاً و انقياداً للمسيء بل هو مقاومة ارادة العاتي بجماع قوة النفس. هكذا يقدر رجل واحد على إعجاز مملكة بأسرها حتى يكون على سقوطها "(٢٥).

و غاندي يرى أن العنف أفضل من الجبن: "حيث يوجد اختيار بين الجبن و العنف فإني أنصح بالعنف"(٢٦). "إنني أحبذ الشجاعة الرزينة للموت بدون قتل.

و لـكن الـذي لـيسـت لـديـه هـذه الـشـجـاعـة فـإنـي انـصـحـه بالقتل و الموت، لا الـفـرار من الـخـطـر بـالـعار، لان الذي يفر يرتكب عنفاً عقلياً، إنه يهرب لعدم وجـود الـجـراة لـيـمـوت اثـنـاء القتال" (٢٧). "إنني اعتقد ان اللاعنف اسمى من الـعنف و الصفح أجدر بالمرء من العقاب فالصفح يزين الجندي، و يغدو الامتناع صـفحاً فقط عندما توجد القدرة على العقاب، و لن يكون لها معنى عندما تصدر عن مخلوق عاجز.. و لا اعتقد الهند عاجزة، و لا داعي لأن يخيف مائة ألف جندي ثـلاثـمـائة مليون إنسان" ثم يضيف: "لا تنبع القوة من المقدرة الجسدية، بل من الـعـزيـمة التي لا تنثني و لا يعني اللاعنف الخضوع المهين لارادة فاعل الشر، بل يـعـنـي وضـع روح المرء كاملة ضد ارادة المتسلط و العمل، حسب هذا القانون، لإثـبـات وجـودنـا فـمن الـمـمكن تحدى القوة الكاملة لامبراطورية جائرة، ليضع الأساس لانهيار تلك الامبراطورية أو بعثها"(٢٨).

تطبيق سياسة اللاعنف و عدم التعاون في الهند:

لـم يـكن غـانـدي يـشـك في قوة تحمل الهند. ففي شباط ١٩١٩م قرر أن يبدأ حـركـة الـلاعـنـف التي خبر أثرها خلال الحملة الزراعية التي قام بها عام ١٩١٨م و لم تكن الحملة سياسية بعد، و قد ظل يدعو إلى التعاون مع الامبراطورية حتى كانون الثاني من عام ١٩٢٠م.

و أعلن غاندي الاضراب الشامل و التوقف عن العمل و الصلاة و الصيام في الـهـنـد كـلها في ٨ نيسان ١٩١٩م و قد كانت هذه المحاولة هي الخطوة الأولى في كـفاح غاندي و قد لقيت هذه المحاولة طريقها إلى قلوب الشعب فحركت أعماق اعماقهم و لأول مرة اتحدت طبقات شعب الهند جميعاً للحصول على القيم التي نادى من أجلها الهنود.

و قد ساد النظام في كل مكان إبان التوقف عن العمل، عدا بعض الاضرابات في "دهلي" و قد سافر غاندي إليها لإخماد ثورتها غير أن الحكومة اعتقلته و أعادته إلى "بومباي" فسببت أنباء اعتقاله الشغب في البنجاب، و نهبت البيوت في بلدة "أمريتسر" و قد وصل الجنرال "دايرى إلى المدينة و احتلها و كان من المقرر ان يعقد اجتماع في مكان عام يسمى حديقة "جوليان والا" و كان الجنرال "داير" قد أصدر أمراً بمنع الاجتماعات العامة دون أن يستجيب إليه أحد فوفد الجنرال إلى تلك الحديقة مع بعض جنده حاملين أسلحتهم ففتحوا النيران بدون سابق انذار و استمر اطلاق النار مدة عشر دقائق حتى نمدت النخيرة و قتل بين خمسمائة إلى ستمائة هندوسي و جرح اكثر من ذلك و أعلنت الاحكام العرفية نتيجة لهذه المجزرة، فعم الارهاب في البنجاب، و رأى غاندي سفك الدماء و الألم المقبلين فحذر شعبه من موجة العنف و كانت حادثة "جوليان والا" مجرد بداية. و لم تتسرب أنباء الارهاب قبل عدة شهور من البنجاب نظراً إلى الرقابة العسكرية الصارمة. و لكنها عندما تسربت جرفت الهند موجة من السخط العنيف أقلقت الرأى العام الانجليزي نفسه(٢٩).

لقد وضعت الحرب الأوربية مسلمى الهند في مأزق حرج إذ أنها مزقتهم بين واجباتهم كمواطنين مخلصين و كاتباع لزعيمهم الديني. و قد وافقوا في نهاية الأمر على مساعدة انجلترا عندما وعدت بعدم مهاجمة سيادة السلطان او الخليفة المسلم. فقد كان شعور الرأى العام الإسلامي في الهند يقضى بأن الأتراك يجب أن يحتفظوا بسلطتهم ليس فقط على الأماكن المقدسة الإسلامية بل على الجزيرة العربية كما حددها العلماء المسلمون بما فيها ما بين النهرين و سوريا و فلسطين و هذا ما وعد به "لويد جورج" و "نائب الملك". و ما أن وضعت الحرب أوزارها حتى تنصل الانجليز من وعودهم و بدأت همسات

شروط الصلح التي يجب فرضها على تركيا تسرى في ١٩١٨م و أخذ المسلمون بالتململ و أدى تذمرهم هذا إلى ظهور حركة الخلافة.

انطلقت حركة الخلافة في ١٧ تشرين الأول ١٩١٩ بمسيرة سلمية مؤثرة ثم تم افتتاح مؤتمر الخلافة في سائر الهند في "دهلي" بعد ذلك بشهر تقريباً و ترأسه غاندي و قد أدرك غاندي بسرعة البرق أن الهيجان الإسلامي يمكن تصعيده ليكون أداة لوحدة الهند إذ أن مشكلة توحيد الأجناس المختلفة في الهند كانت صعبة جداً حيث استغل الانجليز مراراً العداء الطبيعي بين الهندوس و المسلمين و كثيراً ما اتهم غاندي بتبني هذا العداء، و قد ارتاحت الحكومة البريطانية لاستحالة اتفاق الطرفين و عدم اشتراكهما في سياسة متحدة، و لذلك عندما ناشد غاندي وحدة القضية الإسلامية و الهندوسية استفاقت الحكومة بذعر و ذعرت أكثر عندما أعلن غاندي الهندوس لمساعدة القضية الإسلامية. يقول: "أيها الهندوس و البارسيون و المسيحيون و اليهود! إذا كنا نرغب في العيش معاً كأمة واحدة فعلى كل فئة أن تتبنى مصالح الفئات الأخرى، و الاعتبار الوحيد يجب أن يكون عدالة القضية". و قد امتزج الدم الإسلامي بالدم الهندوسي و كان على الشعبين أن يبرما اتفاقاً لا انفصام بعده منذ ذلك الحدث و كان المسلمون العنصر الشجاع و المقدام في الهند، و كانوا أول من أعلن - في يوم الخلافة هذا- رفضهم التعاون مع الحكومة إذا لم تستجب لمطالبهم. و وافق غاندي على هذا الاجراء، و لكنه في فزعه العميق من التطرف رفض لنشذ الدعوة إلى مقاطعة البضائع البريطانية لأنه نظر إلى المقاطعة كتعبير عن الضعف أو التعطش للثار(٣٠).

و اجتمع مؤتمر للخلافة آخر في بومباي في شباط ١٩٢٠م و أصدر بياناً هاجم فيه بعنف سياسة الحكومة البريطانية فكان هذا المؤتمر بداية العاصفة و قد شارك أبو الكلام آزاد في هذا المؤتمر(٣١).

و ادرك غـاندي أن العاصفة في نمو و بدلاً من التحريض عليها عمل كل ما فـي وسـعـه لاضـعـاف شـدتها و ادركت بريطانيا كذلك أن الخطر محدق و شرعت تـبـذل جـهـوداً يـائـسـة بـتنازلاتها لتتجنب نتائج نظرتها السابقة. فاعطى قانون الاصـلاح الـهـنـدي الـمـبـنـى عـلى تقرير "مونتاجيو ـ شلمسفورد الشعب الهندي سلطات اكثر في الحكومة المركزية و الادارات المحلية، و أعلن الملك موافقته عـلـى الـقانون بتاريخ ٢٤ كانون الأول ١٩١٩م داعياً الشعب الهندي و الموظفين إلى الـتـعـاون مـع الـحـكـومـة و حـث نائب الملك على العفو عن الجرائم السياسية و اقترح عفواً عاماً.

كـان غـانـدي عـلـى اسـتـعـداد دائـم لـتصديق حسن نوايا الانجليز مفسراً الاجـراءات الـتي يقوم بها على أنها موافقة ضمنية لمعاملة الهنود بعدالة أكثر، و دعـا الـهـنـود إلـى الـتـرحيب بالاصلاحات رغم اعترافه بانها غير كافية، و لكن يـجـب قـبـولـهـا كبداية لانتصارات اكبر و طالب غاندي المؤتمر أن يقر موافقته عـلـيـهـا بـدون تـحفظ، و بعد مناقشات حادة وافق عليها، و لكن سرعان ما تبدى لـغـانـدي أن آمـالـه كـانت مبنية على سراب و وهم فلم يلتفت نائب الملك لدعوة الـمـلـك بـالـرأفـة، و بدلاً من اطلاق سراح المساجين شرع بتنفيذ أحكام الاعدام و فـهـم الناس أن الاصلاحات الموعودة لن تنفذ و فوق هذا كله وردت أنباء شروط الـصـلـح الـمـفـروضـة عـلـى تركيا في ١٤ أيار/ ١٩٢٠م و صرح نائب الملك أن هذه الشروط مخيبة للآمال و لكنه نصح المسلمين بالاستسلام للواقع.

اسـتـفـاق الـوعـي الـهـندي، و انقطعت صلاته مع الحكومة و وافقت لجنة الـخـلافـة الـمـجـتمعة في "بومباى" بتاريخ ٢٨ أيار ١٩٢٠م بتبني سياسة اللاتعاون الـتـي دعـا إلـيها غاندي و وافق المؤتمر الإسلامي في "الله اباد" على هذا القرار بـالاجـمـاع و كتب غاندي في الوقت نفسه رسالة مفتوحة إلى نائب الملك يعلمه فـيـهـا بـبـدايـة حـركـة الـلاتـعـاون، و شـرح فـيها الأسباب التي الجاته إلى هذه السياسة(٣٢).

و أعـلن غـاندي أن حركة اللاتعاون ستبدأ في أول أغسطس ١٩٢٠م و كاجراء تـمـهـيدي أمـر أن يـكـون الـيوم السابق يوم صلاة و صيام. لم يكن غاندي يخاف الـغـضـب الـحـكـومـي، و لـكنه كان يخاف الغضب الشعبي و بذل كل جهده حتى يـستتب النظام في صفوف الهنود فأعلن أنه "يتوقف نجاح اللاتعاون الفعال على الـتـنـظيم التام، و الفوضى تنجم عن الغضب عادة. و يجب الا يكون هناك عنف. فـالـعـنـف يـعـنـى تقهقر قضيتنا و ضياع أرواح الابرياء و سيادة النظام فوق كل شيء".

و قـد عـرف غـانـدي أسـاليب حركة اللاعنف قبل شهرين بالتعاون مع لجنة اللاتعاون، و اشتملت على الاجراءات التالية:

١ ـ التخلى عن كل ألقاب و مناصب الشرف التي منحتها الـحـكومة.

٢ ـ عدم الإسهام بقروض الـحكومة.

٣ ـ التوقف عن ممارسة المحاماة، و حل القضايا بالتحكيم خارج المحكمة.

٤ ـ مقاطعة المدارس الحكومية و المجالس المعدلة.

٥ ـ عدم الاشتراك في الـحفلات التي تقيمها الـحكومة أو أية مهام أخرى.

٦ ـ رفض قبول المناصب العسكرية و المدنية المقدمة من قبل الـحكومة

٧ ـ الاتفاق على نشر مبدأ الاستقلال الوطني (٣٣).

و أعـطـى غاندي اشارة البدء لهذه الحركة برسالته إلى نائب الملك متنازلاً عن أوسـمـتـه و ألـقابه الفخرية. و شجع الهنود على مقاطعة البضائع الأجنبية و شراء الأقـمـشـة الـمـنـسـوجة باليد فقط و تعلم الغزل بالمغزل اليدوى و شرح

غاندي ذلك بقوله "أن موسيقي المغزل من اقدم الموسيقات الهندية و انها أطربت الشاعر النساج "كبير" و الامبراطور المسلم العظيم اورنكزيب الذي حلاله أن ينسج قبعاته بنفسه". و أمر غاندي في اغسطس ١٩٢١م بحرق كل البضائع الأجنبية في بومباى (٣٤).

و شعر غاندي أن مبدأ اللاعنف يعاني تجربة قاسية و كتب: "ارى أن اللاعنف عندنا سطحي فنفوسنا تشتعل سخطاً، و الحكومة تزيد في ضرامها بالاعمال الخرقاء، حتى يصح القول انها تودلو ترى هذه البلاد بأسرها مخطاة بحوادث القتل و النهب و الحرق، لتدعى بعد ذلك أنها قادرة وحدها على قمعها. يبدو لي أن اللاعنف عندنا ناشيء عن عجزنا، فكاننا نضمر الرغبة في الانتقام لانفسنا متى تسنح الفرصة. فهل يرجى خروج اللاعنف الاختياري من اللاعنف الاضطراري الذي يبدر من ضعاف عاجزين اذا كنتم غير قادرين على اللاعنف فاختاروا العنف صراحة و لكن من غير رياء. لكن الاغلبية تزعم انها راضية باللاعنف. فلتعرف اذن مسؤوليتها"(٣٥).

و شاع في الناس ان غاندي سيزج في السجن لانه المحرك الاعظم للمقاومة الهندية، و لم يكن غاندي يخشى السجن بل كان راغباً فيه، و اعتقل غاندي بالفعل، و قضى في السجن عامين ساءت خلالها صحته و تبين انه مصاب بالتهاب خطير في الزائدة الدودية فنقل على الفور إلى مستشفى ساسون في بونا حيث أجريت له عملية جراحية ناجحة و تجمعت الجماهير في أنحاء الهند مطالبة بالافراج عنه و دعا مولانا محمد علي إلى جعل يوم العاشر من شباط ١٩٢٤م يوم صلاة و صوم من اجل غاندي فخشيت السلطة الانجليزية أن يؤدي ذلك إلى نشوب الاضطراب في أرجاء البلاد فامرت في الرابع من شباط باطلاق سراح غاندي الذي لم يقبل على العمل السياسي فور خروجه من السجن، بل اعتزله قليلاً من الوقت ربما يستعيد قواه و يطلع على تطور الأمور التي تطورت كثيراً

خـلال تـلك السنتين. ثم عاود نشاطه السياسي و شرعت الحركة الوطنية الهندية تـعـاود صـعـودهـا حـتـى شـارفـت الـقـمـة سنة ١٩٣٠م فوضع غاندي عدة مطالب إقـتـصـادية ملحة و أنذر الحكومة الانجليزية بضرورة الاسراع في تحقيقها. فما كـان من غـانـدي إلّا أن أعـلـن الـعـصـيـان المدني لإلغاء ضريبة الملح، داعياً إلى صـنـعه في كل مكان و نقله دون ضريبة و توزيعه مجاناً ثم في فجر اليوم الثاني عـشـر من آذار سـنـة ١٩٣٠م زحـف غـانـدي عـلـى راس الآلاف من انصاره إلى بلدة "دانـدي" لـجـمـع الـمـلـح من الـملاحات التابعة للحكومة فاعترضهم الحكومة و فـرقـتـهم بالقوة، و اعتقلت غاندي و ظل في السجن إلى أوائل سنة ١٩٣١م حتى افـرج عـنـه بـعـد الاتـفـاق المعروف باتفاق غاندي ـ ايزلى الذي حققت الحكومة بـمـوجـبه مطالب الشعب و في أواخر هذه السنة سافر غاندي إلى لندن للاشتراك فـي مـؤتـمـر الـمـائـدة الـمـسـتـديرة الذي عقد لدراسة الدستور و استأنف حركة الـعصيان المدني و لكن السلطة لم تلبث أن اعتقلته من كانون الثاني سنة ١٩٣١م حـتـى أيـار ١٩٣٣م و في عام ١٩٣٤م أعلن المهاتما غاندي اعتزاله السياسة بعد أن نـجـح فـي سـيـاسـة الـلاعنف و عدم(٣٦). التعاون مع الانجليز في النهاية و بدأت الـهـنـد تـسـتـعـد ـ فـي ضـوء تـوجـيـهـاتـه الـروحـيـة ـ إلـى أن تـنـال حـريـتـها و تم لها ما أرادت في عام ١٩٤٧م.

سياسة عدم التعاون عند ابي الكلام آزاد:

كـان مـولانـا أبي الكلام آزاد (١٨٨٨ ـ ١٩٥٨م) الذي وُلد في مكة المكرمة من أب هـنـدي و أم عـربية من عائلة كبيرة في المدينة المنورة ـ من الزعماء الهنود الـذين يـشـار إلـيـهـم و إلـى أعـمـالهم و جهودهم السياسية بالبنان حيث كان في طـلـيـعـة زعماء الحركة الوطنية الهندية و صنواً للمهاتما غاندي الذي كثيراً ما كـان يـستصوب آراءه و يدعو إلى تطبيقها خاصة فكرة "عدم التعاون" و "مسالة الخلافة"(٣٧).

و لقد كان آزاد في مقدمة الزعماء و القادة الذين أبلوا بلاء حسناً في خدمة الخلافة العثمانية و مساندتها و دعوة المسلمين بقلمه و إعلان الثورة على الانجليز المستعمرين مما حملهم على اضطهاده و اغلاق مجلتيه البلاغ و الهلال و مصادرة مطابعه و سجنه عدة مرات. فقد كتب في الهلال في ١٦ نوفمبر ١٩١٢م، يقول: "إن كل مسلم أينما كان في رقعة من الأرض اذا كان من واجباته أن يعمل على بقاء الإسلام، فإن من فرائضه الدينية ايضاً أن يحافظ على مكانة الخلافة العثمانية في قلبه و أن يعد الدولة التي تعتدى عليها من أعداء الإسلام". و قد زار آزاد مصر و الشام و العراق و الجزيرة العربية و تركيا و كانت له علاقات قوية مع العالمين العربي و الإسلامي و كانت تربطه صداقة مع زعماء الاصلاح في العالم الإسلامي و خاصة مصر و في رسالة له صادرة من كلكتا بالهند في ٢٨ مايو ١٩١٣م إلى محمد رشيد رضا المصري يقول عن مسألة الخلافة: "إنكم ترون اعتزاز العالم الإسلامي بالدولة العثمانية و قد آن الأوان أن يقوم العرب قوة واحدة لإحياء تاريخهم المجيد و رأيت اقتراحكم الجليل عن تأليف مؤتمر إسلامي عام و الأجدر به أن يعقد إما في الهند او مصر و كلتاهما تحت نير الانجليز".

و كان مولانا أبو الكلام آزاد رئيسا للمؤتمر القومي(٣٨) الهندي منذ عام ١٩٣٩م و حتى ١٩٤٥م، و هي الفترة التي شهدت ذروة النضال، و التي تلاها استقلال الهند عام ١٩٤٧م.

و في الوقت الذي كان فيه غاندي يحبو على مسرح السياسة في الهند، بعد أن كون له رصيداً حسناً من مواقفه مع الهنود المهاجرين إلى جنوب افريقيا و الدفاع عنهم و لكنه كان أثناء الحرب يدعو مواطنيه لمساعدة الانجليز، كان الزعماء المسلمون مثل آزاد يدعو إلى مقاطعة الانجليز و عدم التعاون معهم لأن الدين الإسلامي يدعو إلى عدم التعاون مع العدو.

و هـكـذا كـانـت الـهـنـد عـلـى اخـتلاف أديانها تموج بالغليان النفسي ضد الانـجليز، لنقضهم العهود التي قطعوها على أنفسهم أثناء الحرب بالنسبة لدولة الـخـلافة و بالنسبة لاصلاح الحكم في الهند. و وحد هذا الغليان بين الجميع فلم يكن من الممكن لآزاد ـ كما يقول ـ "أن يتغافل عما يجرى حوله و عن دعوته من قـبل، فـانـدفـع للعمل السياسي و حركة العصيان المدني بكل قوته دون الالتفات إلـى أي شـيء آخـر". و اخـتـار آزاد العمل مع حزب المؤتمر الوطني الذي لم تكن هـنـاك في ذلك الوقت مظاهر عدائية بينه و بين الهيئات الأخرى. بل قرب بينهما جـمـيـعـاً عـداؤها للانجليز، حتى أن غاندي أعلن تأييده للمسلمين في مطالبهم المتعلقة بالخلافة.

و هـكـذا سـرت فـي الـبلاد فـكـرة عـدم التعاون، يغذيها زعماء المسلمين بـتـوجـيـهاتهم الدينية، كما يغذيها غاندي بدعوته و كان آزاد في مقدمة الزعماء المسلمين حماساً للخلافة و لقضايا وطنه و لمقاطعة الانجليز(٣٩).

و الـحـقـيقة أن بعض المسلمين الأمجاد في الهند، سبقوا الكثيرين ممن يـحـتـلون المكان الأول في حركة تحرير الهند، سبقوهم إلى الجهاد و التضحية، لا لـنـيل الاستقلال الذاتي أو تحريرها لتعيش مستقلة في كتلة دول "الكومنولث" كـمـا كـان يـنـادى حـزب الـمـؤتمر، بل إلى طرد الانجليز نهائياً و تحقيق الحرية الـتـامة للبلاد أن العالم كله يهلك لمبدأ عدم التعاون أو العصيان المدني باعتباره وليداً خاصاً بالزعيم الهندي "مهاتما" استطاع بواسطته الانتصار على الانجليز، و الـحـقـيـقة التي زورها التاريخ في مكان قصى إنه كذلك وليد الفكرة الإسلامية الـمـنـبثقة من نصوص بمائة سنة أو أكثر و كان له أثره البعيد المدى في القيام بـثـورة سـنـة ١٨٥٧م ثـم كـان أثـره فـي جـهـاد بـعـض الـمـسـلـمـين الـمستمر، و حـتـى جـاء غـاندي و انضم للقوة الوطنية في الهند و كان المسلمون دائماً هم السابقين للوقوف في وجه الانجليز(٤٠).

و في أثناء الحرب أخذ أبو الكلام آزاد يدعو المسلمين إلى مقاطعة الانجليز و عدم الولاء لهم، حتى زج به في السجن في الوقت الذي كان يطوف غاندي فيه البلاد، ليدعو الشعب إلى مقاومة الانجليز و قد اتخذ أبو الكلام آزاد من جريدتيه "الهلال" ثم "البلاغ" طريقاً لإعلان هذه الدعوة، و بثها في نفوس المسلمين. و يؤكد لنا هذه الحقيقة آزاد نفسه، عندما قبض عليه في ١٠ ديسمبر سنة ١٩٢١م و سيق إلى المحاكمة متهماً بالتحريض على عدم التعاون مع الانجليز و ذلك حين قال في مرافعته الطويلة أمام الانجليز: "إنني أعلن على مسمع من الحكومة و المحكمة بأنني قد ارتكبت هذه الجناية ارتكاباً و اقترفتها اقترافاً و إن كانت الحكومة لا تعلم - فلتعلم الآن أني من أولئك الجناة الذين بذروا بذور هذه الجناية، في قلب أمتهم، و وقفوا حياتهم على سقيها و تنميتها، بل و إني لا فخر أول مسلم في الهند دعا أمته من اثنتى عشرة سنة إلى هذه الجناية دعوة عامة. و لقد شرحت في هذه الخطبة أن الشريعة توجب على المسلمين في الحالة الحاضرة أن يكفوا عن التعاون مع الحكومة و أن يقاطعوها مقاطعة عامة و هذا هو اللاتعاون - الذي أطلق عليه بعد ذلك اسم Non co-opration و تولى غاندي قيادته" (٤١).

و هناك فرق هام و جوهري بين فهم كل من غاندي و آزاد لفكرة عدم التعاون أو المقاطعة فآزاد سبق غاندي في فكرة عدم التعاون و المقاطعة مطبقاً لوجهة النظر الإسلامية في موقف المسلمين من أعدائهم و لاسيما الحاكمين لهم، و هي عدم الولاء لهم أو عدم التعاون معهم و لكنهم لم يمتنعوا عن مقابلة القوة بالقوة، أو استعمال القوة معهم بل قد يتعين عليهم استعمال هذه القوة. أما فكرة غاندي فتقوم على المقاومة الخالية من العنف بمعنى أنه لا يقابل القوة بالقوة، بل يستقبل اللطمة ساكناً، مستعداً لتلقي غيرها، و هكذا، حتى لا يؤذي الذي يؤذيه لأن نظريته قائمة على المقاومة السلبية.

لقد كان آزاد يريد من حركة عدم التعاون طرد الانجليز من الهند نهائياً و الظفر بحرية البلاد كاملة، بينما غاندي حين بدأ حركته لم يقصد منها إلاّ رفع بعض المظالم و تحقيق بعض الاصلاحات التي و عد بها الانجليز.

يقول: "نهرو" موضحاً رأى غاندي في الفترة التي خرج فيها من السجن سنة ١٩٢٤: " و كان أبي يريد أن يشرح لغاندي، موقف أنصار السوراج "الحرية و الاستقلال الذاتي" و أن يحمله على العطف السلبي عليهم إذا عجز عن إقناعه بالتعاون الايجابي مع الحركة و كان جماعة من شباب حزب المؤتمر المتحمسين، قد اعتنقوا فكرة المطالبة بالاستقلال الذاتي"(٤٢).

و أخذ آزاد يدعو الناس في كل مكان و بكل أسلوب و في كل جماعة أو حزب إلى عدم التعاون مع الانجليز. يقول: "إنني طفت البلاد الهندية كلها عدة مرات خلال السنتين الماضيتين وحدى و مع "مهاتما غاندي" و لا توجد بلدة إلاّ و خطبت فيها على مسألة الخلافة و الحرية و اللاتعاون و لقد انعقدت جمعية الخلافة الكبرى في ديسمبر ١٩٢٠م، مع الجمعية الوطنية العامة في ناكبور و جمعية العلماء في أبريل في "بريلي"، و جمعية الخلافة لمقاطعة "اورهر" في أكتوبر بمدينة آكرا و جمعية العلماء العامة في نوفمبر في مدينة لاهور و قد رأست هذه الجمعيات كلها و خطبت فيها خطباً طويلة"(٤٣).

و نتيجة لهذا النشاط السياسي المكثف الذي قام به آزاد لنشر فكرته في عدم التعاون مع الانجليز ألقى القبض عليه في ١٠ ديسمبر ١٩٢١م و قدم للمحاكمة بتهمة القاء الخطب التي تثير المشاعر، و تحريض الشعب على مقاطعة الحكومة و عدم التعاون معها و كانت خطبه تقوم على النقاط التالية:ـ

١ ـ أن الخضوع لمثل هذه القوانين الجائرة (الطوارىء) معناه التنازل عن الحقوق المدنية و الإنسانية و لا يجوز للحكومة أن تحظر الاجتماعات السلمية،

و الاعمال الوطنية البريئة، فلو خضعنا لها خوفاً من السجن و العقاب نكون مجرمين أمام ضمائرنا، و أمام الإنسانية على السواء، فليس على محبي الحرية و الحق إلّا أن يعضوها، موطنين انفسهم على احتمال المصائب التي تصبها الحكومة على رؤسهم، و لا يخضعوا لها في اي حال.

٢ ـ توسيع نطاق التطوع، فينبث المتطوعون في كل شارع و زقاق معلنين المقاطعة الملكية التي تريد الحكومة منا التنازل عنها و لا يطيعون السلطات، بل يقدمون انفسهم للاعتقال بدون كره.

٣ ـ تعقد المؤتمرات و المجالس فى الأماكن العامة و يسلم الحضور انفسهم للشرطة إذا أرادت القبض عليهم.

٤ ـ و إذا ألقى القبض على أحد، فلا يدافع عن نفسه في المحاكم التي تمثل الحكومة الجائرة و إنما يقاطعها مقاطعة تامة (٤٤).

كانت هذه المبادىء التي دعا إليها آزاد في كل خطبة ـ و يقول: "إننا وضعنا لجهادنا الحق خطة عدم التعاون. أجل ان القوات المادية واقفة اماما بجميع أسلحتها القتالة، و مواردها العظيمة تريد أن تسحقنا سحقاً، و تمحق الحرية و الحق معنا، و لكن هذا لا يهولنا لاننا لا نثق بالمادة و الاسلحة المادية. انما اتكالنا على الله الواحد القهار و ثقتنا في الضحايا المتوالية التي نقدمها، و الثبات القوى الذي نظهره في هذه المعمعة القائمة بين الحق و الباطل.

و انى لا ارى مثل "مهاتما غاندي" ان استعمال السلاح لا يجوز بحال، لانى مسلم و أعتقد أن استعماله مباح في المواقع التي اباحه الإسلام فيها و لكني مع هذا أسلم بجميع ادلة غاندى في المسالة الحاضرة و اعتقد صحتها، و اني لعلى يقين من ربّي في ان الهند ستفوز في قضيتها بخطه عدم التعاون السلمي و يكون فوزها فوزاً عظيماً للحق على الباطل"(٤٥).

و الـحـقـيـقـة أن وجـهـة نظر أزاد هذه وجدت صدى عند جواهر لعل نهرو و أيـدهـا قـائلاً: "أظن أن غاندي نفسه لا ينكر أن الدولة المستقلة في هذا العالم غير الكامل لا بد أن تلجأ إلى العنف أحياناً، لتحمي نفسها من هجوم العدو عليها من الـخـارج، كـمـا لا يـنـكـر أن أيـة دولـة اسـتـعـمـاريـة مـسيطرة على غيرها لا يـمـكن حـمـلـها على النزول عن هذه السيطرة بالاقناع وحده دون الالتجاء إلى العنف أحياناً. و كل هذه الاسئلة تحملنا الاجابة عنها إلى عدم المبالغة في فائدة حـركـة عـدم الـعـنـف و قـيـمتها، و إلى الاعتقاد بأن عدم العنف نفسه ـ و إن كان وسـيـلـة سـامـية مرغوباً فيها ـ لا يمكن الاعتماد عليه وحدة في هذا العالم الذي يفشي فيه"(٤٦).

و فـي الـوقـت الـذي كان فيه أزاد يتقدم بخطى ثابتة نحو نجاح فكرته في سـيـاسـيـة عـدم الـتعاون "مضى غاندي ـ كما يقول آزاد ـ في طريقه حتى عطل حركة عدم التعاون إثر الـحادث الذي وقع في قرية "تشوري تشورا" و قد سبب ذلك رد فـعل في الدوائر السياسية و أوهن عزم البلاد، و لم تتريث الـحكومة في الافادة من الـمـوقـف فـألـقـت القبض على غاندي و حكمت عليه بالسجن ست سنوات، و فشلت حركة عدم التعاون تدريجياً"(٤٧).

و يمضى نهرو في نقده لقرار غاندي بوقف حركة عدم التعاون فيقول: "كان جـمـيـع زعـمـاء الـمـؤتـمر البارزين غير راضين عن وقف حركة عدم التعاون مع الـحـكـومـة و كان من أشدهم غضباً أبي (موتي لعل نهرو) في سجنه فقد حطم وقـفـهـا آمـالـنـا و هـي آخذة في القوة و النماء، و كان اشد ما ضايقنا في وقفها الأسـبـاب الـتـي بـنـى عـلـيـهـا هـذا الـوقـف، و مـا يـتـرتب عليها من عواقب في المستقبل"(٤٨).

و هـكـذا يمضى "نهرو" في نقد قرار غاندي بوقف حركة عدم التعاون نقداً لاذعـاً و مـقـبولاً، فما الذي يضير حركة الهند في سبيل تحريرها إذا قتل جماعة

من الانجليز كانو معتدين؟و كيف يقض مضجعنا أن يقتل هؤلاء النفر المعتدون، و ننسى مئات الآلاف من أبناء الهند، الذين ذهبوا ضحية لمطامع الانجليز منذ وضعوا أقدامهم في أرض الهند؟

فصوفية غاندي هي التي دفعته إلى الغضب من أجل حادثة هذه القرية و ايقاف هذه الحركة الناجحة، لقتل عدد من الانجليز! تقول امينة السعيد: "لقد سمعت متحدثاً هندياً معاصراً لتلك الحركة، و مشتركاً في أحداثها يفسر لي هذا القرار العجيب، و يقول: "لقد رأى غاندي أن الحركة كانت أن تؤتي ثمارها و أن المسلمين هم المبرزون فيها، و قد تمرسوا بالعمل و الجهاد و الدعوة إليه قبل غيرهم، و لو أن الحركة نجحت حينئذ لكان للمسلمين فضل بارز فيها و لتقدمو الصفوف حين جنى الثمرات، و عادت إليهم عزتهم و مكانتهم و هذا ما يأباه أي هندوسي و لو كان غاندي، و ليس هذا بعيد فإن غاندي "بالرغم من صفاته الطيبة الكثيرة متعصباً لدينه تعصباً شديداً يحول دون تفاهم الفريقين المتخاصمين. و غاندي يفضل أن تبقى الهند تابعة للانجليز على أن يكون للمسلمين شوكة فيها"(٤٧).

و قد أدى فعل غاندي إلى ضياع جهد آزاد و اعطاء الفرصة للانجليز، فبداو يتنفسوا الصعداء و قاموا باعتقال الكثيرين و في مقدمتهم غاندي و حكمت عليه بالسجن ست سنوات، لم يمضيها كلها و افرج عنه في عام ١٩٢٤م و خرج من السجن عازفاً عن المشاركة في الحياة السياسية و انعزل يبشر بمبادئه الخلقية بين الهنود.

و خرج آزاد فيمن خرجوا من السجن في يناير ١٩٢٣م فوجد هذه الحالة أمامه، فلم يدب الفتور في نفسه ـ عكس غاندي ـ و ينزع إلى العزلة، كما حدث لنهرو، بل تحمل آزاد مسئوليته في الحزب و في قيادة الشعب الهندي في هذه

المرحلة الحرجة من تاريخ الهند. يقول: "خرجت من السجن فوجدت المؤتمر يواجه أزمة خطيرة، و كانت النتيجة أن كل كفاءة رجال المؤتمر تضيع في النزاع الداخلي، بدلاً من أن تستخدم في الكفاح ضد بريطانيا، على أنني رفضت التحيز إلى اي معسكر و ادركت أن الخلافات الداخلية هذه خطيرة و تكاد تؤدي إلى تشتت المؤتمر اذا لم نحاصرها سريعاً و حاولت توجيه كل اهتمام الاعضاء إلى الكفاح السياسي و يسرني أن اقول: "إنني كنت ناجحاً في مساعي، فعقدت دورة خاصة للمؤتمر في دلهي، و انتخبت أنا رئيساً باجماع الاعضاء، و يروى انني كنت أصغر الذين انتخبوا لرئاسة حزب المؤتمر سناً، و القيت خطابي كرئيس للاجتماع و أكدت فيه أن هدفنا الحقيقي هو: تحرير البلاد، و لا يخفى اننا نواصل السير على برنامج العمل المباشر منذ ١٩١٩ و جاء هذا البرنامج بنتائج لا يمكن التغاضي عنها"(٥٠).

و في سنة ١٩٣٥م خاض حزب المؤتمر الانتخابات و فاز بالاغلبية، و كان آزاد في مقدمة الفائزين على مبادىء الحزب، ثم قبل الحزب أن يشترك في الوزارات الاقليمية و ظل هذا الوضع حتى قامت الحرب العالمية الثانية في سبتمبر ١٩٣٩. و أعلن نائب الملك في الهند دخولها مع بريطانيا في هذه الحرب، دون الرجوع إلى رأى أحد من زعمائها فاعتبر رجال المؤتمر هذا القرار ماساً بكرامتهم فاستقال معظمهم و دخلت الهند بقيادة آزاد في طور جديد من الكفاح.

و كان في حزب المؤتمر تياران فكريان مختلفان و متباعدان كما أشار آزاد:

الاول: تيار يمثله آزاد و وراءه جماعة من أعضاء الحزب المقتنعين به.

الثاني: تيار يمثله غاندي و وراءه هو الآخر أنصاره المؤمنون به.

و ظهر هذان التياران منذ بدأ المؤتمر يناقش ـ قبل قيام الحرب فكرة دخول الهند الحرب مع بريطانيا، و استمر الخلاف بينهما حتى انتهت الحرب، و بدأت المفاوضات الأخيرة للاستقلال، و كان خلافاً بين عقيدتين و أسلوبين في الحياة، لكن مع الاحترام المتبادل و أظهرت الأحداث صدق آزاد و بعد نظره في كل ما كان يراه و يخالف فيه غاندي. فقد كان آزاد يرى أن الهند بطبيعتها تكره النازية الفاشية و تؤمن بالديمقراطية و لهذا فإن وضعها الطبيعي مع الديمقراطية و المدافعين عنها و عن الحرية، لكن إيمانها هذا شيء، و دخولها الحرب في صف المدافعين عن الديمقراطية ـ كما يقولون ـ شيء آخر فالهند لا يمكنها أن تدخل الحرب، و تبذل التضحيات في صف الذين يقولون أنهم يدافعون عن الحريات، و هم أنفسهم الذين يسلبونها حريتها، فإذا وافقت بريطانيا و تعهدت بأن تعطى الهند حريتها ـ و لو بعد الحرب ـ فإن من الممكن في هذه أن تشارك الهند فيها أما إذا لم توافق فإن حزب المؤتمر لا يمكن أن يوافق على دخول الحرب للدفاع عن الحريات و لابد له أن يتخذ الموقف المناسب للحصول على الحرية (٥١).

و كان غاندي يرى غير ذلك فهو يرى لو أن بريطانيا نفسها تقدمت بمنح الهند استقلالها، بشرط أن تشترك في الحرب، فإنه سيرفض هذا الطلب حتماً، إذ أنه كان يعتقد أن "اللاعنف" قدر نهائي و لا يجد لنفسه مبرراً للمساومة على هذه المسألة و لو لأجل حرية الهند.

يقول آزاد في مذكراته: "و أنعم غاندي التفكير في هذه المسألة، و تقدم أخيراً إلى اللجنة التنفيذية للمؤتمر بمقترح مؤداه: "أنه يجب على الهند أن تجهر بموقفها من هذه الأزمة الدولية و كان مقتنعاً بأن الهند يجب عليها الا تشترك في الحرب المقبلة مهما تكن الظروف، حتى و إن أسفر هذا الاشتراك عن ادراكها الحرية"(٥٢).

و يـضـيـف آزاد: "كـانـت مـهـمـتي بصفتي رئيس الحزب ان أقود الهند إلى المـعـسـكـر الـديـمـقـراطـي، بـشـرط أن تـنـال حريتها، و لا مراء في ان قضية الـديـمقراطية كانت مما يعني بها الهنود و يطمحون إليها، و لم تكن في طريقنا عـقـبـة إلا غاندي فقد نظر إلى القضية غير نظرتنا و كانت القضية لديه قضية اللاعـنـف لا قـضـيـة حـريـة الـهند و أما انا فقد صرحت علناً بان حزب المؤتمر الـوطـنـي لـيـس مـنـظـمة مسالمة و إنما هي منظمة مهمتها السعى لنيل الهند لـحـريـتـهـا، و نظراً إلى هذا، فإنني أرى أن المسالمة التي يثيرها غاندي لا تلائم الـحـالـة الراهنة و لا علاقة لها بالحقيقة الواقعة، كما أنني لم أتمكن من ارغام نـفـسـي عـلـى مـوافـقـة غاندي إذ أن اللاعنف في رأيى مسالة سياسية محضة، لا عقيدة من العقائد الدينية ـ كما كان يراها غاندي ـ و لم اشك لحظة في أن من الجائز للهنود ان يلجأوا للسلاح أن عجزوا عن كل تدبير و تفاهم متبادل"(٥٣).

و بـرهنت الاحداث على أن آزاد كان بعيد النظر و قد ظل في رئاسة الحزب طـوال مـدة الـحـرب و تولى المفاوضات باسم الهند حتى ظفرت باستقلالها سنة ١٩٤٧م بل و ظل رئيساً للحزب بعد الاستقلال حتى سنة ١٩٥٠م و تولى وزارة التعليم في الحكومة المركزية حتى وفاته في فبراير ١٩٥٨م.

خاتمة البحث:

(١) كـان غـانـدي و آزاد وجـهـى الـعملة في الفكر السياسي الهندي، غاندي الـزعـيـم الـروحي و نبي السياسة الهندية القائمة على المقاومة السلبية "ساتيا جـراهـا" و عدم العنف، و آزاد الزعيم الديناميكي في السياسة الهندية، و صاحب سـيـاسـة عـدم الـتـعـاون مـع الانجليز و كان آزاد برئاسته لحزب المؤتمر الهندي الـرجـل الـثاني في الهند بعد غاندي و الرجل العلمي الاول الذي يلجأ إليه الحزب في وقت اشتداد الأزمات و احتياج البلاد إلى الفكر المدبر و القائد الماهر بجانب

زعامة غاندي الروحية.

(٢) المقاومة السلبية "الساتيا جراها" أو العصيان المدني كانت الفكرة المحورية و حجر الزاوية في سياسة غاندي التي انتهجها إبان فترة كفاحة في الهند منذ سنة ١٩٣١م و حتى استقلال الهند سنة ١٩٤٧م و تقابلها فكرة "عدم التعاون" عند آزاد.

(٣) لم يكن غاندي و غيره من زعماء الهندوس يطلبون في كفاحهم سوى الحكم الذاتي و البقاء تحت وصاية الامبراطورية البريطانية داخل مجموعة دول الكومنولث، بينما طالب آزاد وغيره من زعماء المسلمين الانفصال التام عن الامبراطورية البريطانية. و من الثابت أن غاندي كان معارضاً لفكرة الاستقلال التام التي تقدم بها آزاد و هذا ما أكده راجندر برساد أحد الزعماء المخلصين لغاندي و رئيس الجمهورية السابق في كتابه "عند قدمى غاندي" في معرض حديثه عن المؤتمر السنوي لحزب المؤتمر في أحمد آباد ١٩٢٢م يقول: "و من مشاريع القرارات التي طرحت على الدورة مشروع قرار قدمه أبو الكلام آزاد و حسرت موهاني و ينص على أن هدف المؤتمر يجب أن يكون الاستقلال الناجز و الانفصال عن الامبراطورية و قد آثار هذا المشروع مناقشة حامية و لكنه رفض بسبب معارضة غاندي "العنيفة" له" (٥٤).

(٤) استمد غاندي فكرته "المقاومة السلبية" أى قوة الحق الدافعة من غير حاجة إلى عنف من دادا بهاى البارسي. بينما استمد آزاد فكرة اللاتعاون "عدم التعاون" مع الانجليز من مبادىء القرآن الكريم و اجتهادات شاه ولي الله الدهلوي و شيخ الهند محمود حسن.

(٥) اتضح من البحث أن غاندي فنى و أراد أن يفنى الهند معه في مبدئه "اللاعنف" حتى لم يكن يرضى أن يحيد عنه و لو كانت حرية الهند ثمنا لذلك. و كان يرى أن بريطانيا نفسها تقدمت بمنح الاستقلال للهند بشرط أن تشترك في

الحرب فإنه سيرفض هذا الطلب - و هو ما حدث بالفعل - إذ أنه كان يعتقد أن "اللاعنف" قدر نهائي و لا يجد لنفسه مبرراً للمساومة على هذه المسألة و لو لأجل حرية الهند نفسها.

كان غاندي يتعامل بروح بعيدة عن الواقع لدرجة أنه بعث برسالة مفتوحة للشعب البريطاني توسل إليهم فيها أن يمتنعوا عن محاربة هتلر بالسلاح و عليهم أن يحاربوه بالقوة الروحية!!

(٦) لقد هز غاندي مشاعر الهند بعقيدة عدم العنف و قد ردد كثير من الهنود أقواله فيها دون تفكير، و لكنهم قبلوها و عملوا بها، و منهم من قاومها ثم عادوا فقبلوها بشيء من التحفظ و منهم من سخروا منها.

(٧) عقيدة اللاعنف أو المقاومة السلبية قديمة تكاد تبلغ في ذلك قدم التفكير البشرى و لكن لعل غاندي هو أول من طبقها على نطاق واسع في الحركات السياسية و الاجتماعية و حولها من مثل أعلى للفرد إلى مثل أعلى للجماعة. رغم ذلك لم يكتب لها النجاح في الميدانين السياسي و الاجتماعي.

(٨) نشأ كل من غاندي و آزاد في أسرة دينية عريقة أثرت في تشكيل و بلورة أفكار كل منهما، فغاندي و أن لم يكن ينتمي إلى طائفة البراهمة إلّا أن أسرته احتلت مكانة دينية هامة، بينما كان آزاد عربي المولد ولد في مكة المكرمة و قضى بواكير حياته الأولى فيها ثم رحل إلى الهند و كانت أمه تنتمي إلى عائلة دينية كبيرة في مكة. و لقد نظر كل من غاندي و آزاد إلى الدين نظرة تسامح و عدم تعصب في المجتمع الهندي الملىء بالتناقضات السياسية و الدينية و الاجتماعية.

(٩) كان أبو الكلام آزاد العالم البارز و رجل الدولة و أول وزير للتعليم في الهند بعد حصولها على الاستقلال قد شارك في المفاوضات مع الانجليز لاستقلال

الهند و رفض بثبات الانصياع إلى حركة انفصال المسلمين الهنود بزعامة محمد علي جناح التي أدت إلى ظهور باكستان لاقتناعه العميق بالقومية الهندية التي تضم تحت اعطافها العديد من الاديان و الثقافات و العناصر مؤمناً بأن الدين لله و الوطن للجميع و لانه كان رمزاً لجوهر و مبادىء الهند القائمة على التعددية و العلمانية، ارسى آزاد الأساس لسياسات الهند التعليمية و الثقافية بعد حصولها على الاستقلال.

(١٠) ظلت كفة التنظير السياسي في الهند و خارجها تميل دائما إلى المهاتما غاندي في مقابل كفة آزاد الزعيم الفاعل و رئيس حزب المؤتمر الهندي الذي يضم أغلبية هندوسية.

(١١) ظلت ابواق الدعاية الهندية - الأغلبية - تمجد الدور السياسي لغاندي و تغلبه على باقي الزعماء الذين لولا هم لما كان لغاندي هذه الجلبة و كان آزاد من هؤلاء الزعماء الذين عملوا في صمت من أجل تحرير الهند.

(١٢) كان كل من غاندي و آزاد على صلة وثيقة بزعماء مصر و على راسهم سعد زغلول و قد زار غاندي و آزاد مصر و استقبلهما المصريون بالترحاب الشديد و نظم شوقي و العقاد قصيدتين في مدح غاندي. و كانت شهرة غاندي في البلاد العربية قد طغت على آزاد - العربي الأصل - و وجدنا السياسة المصرية منذ عبد الناصر و حركة عدم الانحياز ترفع من اسهم غاندي في مقابل آزاد.

(١٣) ظلم التاريخ الأفكار و المفكرين المسلمين و دورهم في الفكر السياسي الهندي رغم أن فكرة المقاومة السلبية التي أحدثت جلبة كبيرة في الفكر السياسي في آسيا هي فكرة إسلامية كانت موجودة و نفذها زعماء المسلمين قبل أن يولد غاندي بمائة عام و هذا ما أكده نهرو و هو سياسي هندوسي مخضرم حيث قال في مؤتمر عقد لبحث الوسائل و الطرق الغاندية عن

نظرية اللاعنف "*إن غاندي لم يأت بشيء جديد من ناحية المبدأ، إنها* نفس النظرية و المبدأ الذي نادى به الهنود القدماء خلال القرون الماضية، و إنما ميزة غاندي أنه لم يكتف بعرض هذه النظريات بل مارسها على نطاق واسع"(٥٥).

مصادر و حواشي البحث:

١ ـ عبد المنعم النمر: كفاح المسلمين في تحرير الهند. الهيئة المصرية العامة للكتاب. الطبعة الثانية القاهرة: ١٩٩٠م: ٨٣.

٢ ـ فتحى رضوان: المهاتما غاندي: القاهرة: ١٩٦٥م: ١٦٩

٣ ـ عزيز أحمد: هند و باك مين اسلامى كلجر. دلهي. ١٩٩١م: ٩٣

٤ ـ المرجع السابق: ١٠٧

٥ ـ مجلة صوت الشرق: العدد: ٣٩٧. القاهرة. ١٩٩٧م. ٣ ـ ٤

٦ ـ عزيز أحمد: هند و باك مين اسلامي كلجر. دلهي. ١٩٩١م: ١١٠

٧ ـ مجلة صوت الشرق: العدد: ٣٩٧: ٥ ـ ٦

٨ ـ المهاتما غاندي: في سبيل الحق أو قصة حياتي. ترجمة محمد سامى عاشور. دار المعارف. مصر: ١٧٦ ـ ١٧٧ (بدون تاريخ).

٩ ـ مزرعة فينكس: هي المزرعة التي أسسها غاندي في "دربن" بجنوب افريقيا ليطبق فيها أراءه الخاصة بفلسفة "الساتيا جراها" المقاومة السلبية و تقع على مساحة مائة فدان و بدأ العمل بها عام ١٩٠٤م. (غاندي: في سبيل الحق: ١٦٢ ـ ١٦٣) أيضاً: لويس شاروبيم: موهنداس الروح الثائر. القاهرة: ٣١) و قد انشأت هذه المزرعة بناء على رأى تولستوى.

١٠ ـ المهاتما غاندي: قصة اللاعنف في جنوب افريقيا. ترجمة منير البعلبكي. دار العلم للملايين. بيروت الطبعة الأولى. مايو ١٩٦٠م: ١٥٦ ـ ١٥٧

١١ ـ صحيفة "الرأى العام": هي صحيفة أسبوعية كانت تصدر في جنوب افريقيا و كانت لسان حال سياسة "ساتيا جراها" (المقاومة السلبية) و كانت تصدر بالانجليزية و الهندية و التاميلية و الكجراتية و ظهرت هذه الصحيفة في عام ١٩٠٤م متزامنة مع مزرعة فينكس و يرجع الفضل في اصدار هذه الجريدة إلى مادانجيت فيياقا هاريك في مدينة "دربن". (غاندي: في سبيل الحق: ١٥٨ ـ ١٥٩) و (غاندي: قصة اللاعنف في جنوب

افريقيا: ١٩٧).

١٢ ـ *المهاتما غاندي: قصة اللاعنف في جنوب افريقيا*: ١٥٨ ـ ١٥٩

١٣ ـ المهاتما غاندي: *المرجع السابق*: ١٦٠ ـ ١٦١

١٤ ـ المهاتما غاندي: المرجع السابق: ١٦٢ ـ ١٦٤

١٥ ـ رومان رولان: غاندي و كفاحة المسالم: ترجمة محمد التونجي. دار الفكر. بيروت. ١٩٦٩م: ١٧ ـ ١٩

١٦ ـ رسالة مطولة من تولستوى إلى غاندي، نشرت في العدد الذهبي من جريدة الرأى الهندي، ارسلها تولستوى قبيل وفاته بتاريخ ٧ أيلول ١٩١٠م. فقد اطلع تولستوى على انباء مقاومة الهنود اللاعنفية و سر لهذه الشجاعة فاثنى على حملتهم و صرح أن اللاعنف هو قانون الحب، و هو طموحه لكى يكون جزءاً من اتصال الارواح الإنسانية.

١٧ ـ المهاتما غاندي: قصة اللاعنف في جنوب افريقيا: ٣٢٦

١٨ ـ رومان رولان: غاندي و كفاحه المسالم: ٢١ ـ ٢٢

١٩ ـ المرجع السابق: ٢٢ ـ ٢٣

٢٠ ـ امبروزو: المهاتما غاندي: ترجمة اسماعيل مظهر. القاهرة: ٢٢٨ ـ ٢٢٩

٢١ ـ رومان رولان: غاندي: ٢٣

٢٢ ـ المهاتما غاندي: في سبيل الحق: ٢٠٤

٢٣ ـ قدري قلعجي: غاندي أبو الهند: دار العلم للملايين. بيروت. ١٩٤٨: ٥٩ ـ ٦١

٢٤ ـ على أدهم: الهند و الغرب. دار المعارف. مصر: ١٠٠ ـ ١٠٢

٢٥ ـ احمد البيشبيشي: الهند خلال العصور: اجرا: ١٢٤ ـ ١٢٥

٢٦ ـ قدري قلعجي: غاندي أبو الهند: ٦٣

٢٧ ـ غاندي: في ١١ أغسطس ١٩٢٠م

٢٨ ـ غاندي: ١٩٢١/١/٢٠م.

٢٩ ـ غاندي: ١٩٢٠/٨/١٤م.

٣٠ ـ رومان رولان: غاندي و كفاحه المسالم: ٥٤ ـ ٥٧

قدري قلعجي: غاندي أبو الهند: ٦٥

٣١ ـ رومان رولان: *المرجع السابق*: ٥٨ ـ ٦٠

٣٢ ـ لويس شاروبيم: موهنداس الروح الثائر: ٦٧

٣٣ ـ رومان رولان: غاندي و كفاحه المسالم: ٦٠ ـ ٦٢

راجندر برشاد: عند قدمي غاندي: ترجمة منير البطبكي دار العلم للملايين. الطبعة الاولى. بيروت. ١٩٥٩: ١٢٨ ـ ١٣٠

٣٤ ـ راجندر برشاد: *المرجع السابق*: ١٣١ ـ ١٣٢. ايضاً: غاندي: في سبيل *الحق*: ٢٥١. *أيضاً*: رومان رولان: غاندي و كفاحه المسالم: ٦٥ ـ ٦٦

٣٥ ـ رومان رولان: المرجع السابق: ٧٥ ـ ٧٧

٣٦ ـ قدرى قلعجى: المرجع السابق: ٨٦

٣٧ ـ قدرى قلعجى: المرجع السابق: ٩٤ ـ ٩٩

راجندر برشاد: عند قدمي غاندي: ١٨٦ ـ ١٨٩

٣٨ ـ جلال الحفناوي: مولانا أبو الكلام أزاد و العرب في ضوء مسألة الخلافة. حيدر اباد الهند ١٩٩٩.

٣٩ ـ المؤتمر القومي الهندي: تأسس المؤتمر القومي الهندي عام ١٨٨٥م بمدينة بومباي، و كان قد تم تكوين العديد من الاتحادات لانعاش الهنود: و طموحاتهم السياسية منذ أواسط القرن التاسع عشر الميلادي ففي عام ١٨٤٣م تم تاسيس الجمعية البريطانية الهندية بالبنغال و في عام ١٨٥١م أسس "راجندر لعال مترا" و "رامجو بال غرس" الاتحاد البريطاني الهندي في كلكتا و في نفس الفترة بدأ اتحاد بومباي على يد "جوكان ناث سركار" و "دادا بهائي نوروجي" و آخرين. و في عام ١٨٧٦م أسس "سوريندرا ناث بانيرجيا" الاتحاد الهندي في البنغال و كان من أهدافه الأولى توحيد الشعب الهندي على أساس المصالح السياسية العامة. و هكذا كانت الاتحادات تمثل بشائر التنظيم السياسي الهندي الشامل المسمى "بالمؤتمر القومي الهندي" الذي عقد أول جلساته في ٢٨ ديسمبر ١٨٨٥م فكان أول تنظيم سياسي هندي فعال.

(Sankar Ghose, Indian National Congress.p.1-5)

٤٠ ـ عبد المنعم النمر: مولانا ابو الكلام أزاد: الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة. ١٩٩٣م. ص: ٢٣١ و ٢٣٢.

٤١ ـ عبد المنعم النمر: كفاح المسلمين في تحرير الهند: ٧٤

٤٢ ـ المرجع السابق: ١١٩

٤٣ ـ نهرو: نهرو بقلمه. تعريب محمد بدران. ٨٠ ـ ٨١

٤٤ ـ مجلة ثقافة الهند: مارس و يونيو ١٩٥٨: ١١٨.

٤٥ ـ المرجع السابق: ٨٤

٤٦ ـ آزاد: مرافعة آزاد في المحكمة الانجليزية. ثقافة الهند. مارس و يونيو ١٩٥٨م: ٨٥

٤٧ ـ نهرو: نهرو بقلمه: ٥٣

٤٨ ـ مجلة ثقافة الهند: سبتمبر ١٩٥٨م

٤٩ ـ المرجع السابق: ٥٧

٥٠ ـ أمينة السعيد: مشاهدات في الهند. ١٥٩

٥١ ـ مجلة ثقافة الهند: سبتمبر ١٩٥٨م

٥٢ ـ عبد المنعم النمر: مولانا أبو الكلام آزاد: ٤٠٠ ـ ٤٠١

٥٣ ـ ازاد: مجلة ثقافة الهند. ديسمبر ١٩٥٨: ١٠٥

٥٤ ـ آزاد: مجلة ثقافة الهند. يوليو. ١٩٥٩م: ٩ ـ ١٠

٥٥ ـ راجندر برساد: تحت قدمي غاندي: ١٦١

٥٦ ـ ثقافة الهند: مارس: ١٩٥٣م

العلوم و التكنولوجيا: خطوات واسعة مؤثرة

بقلم: يو. آر راو

إن التقدم المستمر للعلوم و التكنولوجيا في الهند على مدى السنوات الخمسين الماضية بعد الاستقلال يعكس بحق قصة بلد كبير من البلدان النامية، يناضل من أجل إنشاء مجتمع متساوٍ يتمتع بنوعية الحياة المقبولة في نظام ديمقراطي مستقر، و لا يمكن فهم هذا التقدم العلمي للهند ما بعد الاستقلال بشكل كامل ما لم ينظر إليها بمنظور الهند ما قبل الاستقلال، و رغم ما للهند من عهد قديم و تاريخ راسخ في العلوم و الفلك يرجع إلى عهد العلماء الكبار في الفلك و الرياضيات أمثال آريابهات و فاراهاميهيرا و سوشروتا و بهاساكار فإنها لم تستطع أن تستفيد من الموجة الثانية للثورة الصناعية خلال القرنين من حكم الاستعمار، و عند الاستقلال لم تكن الهند إلّا بلدا زراعيا فقيرا في الأساس معتمدا كليا على مصادر خارجية في تلبية احتياجاتها من السلع الصناعية حتى الدبوس و المشبك ماعدا درجة متواضعة من التصنيع في النسيج و الحديد، و يرجع الفضل في إحياء التقليد العلمي في عصر ما بعد الاستقلال إلى السياسي العظيم جواهر لال نهرو الذي كان لديه إيمان راسخ بأن العلوم وحدها تقدر على حل مشكلة الجوع و الفقر و المرض و الجهل و الخرافات و العادات و التقاليد المميتة و ضياع الموارد الكبيرة في بلد غني يسكنه شعب جائع، و لم تكن تعني العلوم عند بانديت جواهر لال نهرو أداة للتنمية الاقتصادية فحسب، و إنما كانت وسيلة لتحرير الإنسان أيضا، و كان

المزاج العلمي يمثل الدين الحقيقي الذي وحده يمكن أن يؤدي مجتمعا راكدا إلى التحول النوعي، و تجسد اعتقاده الأساسي بالعلوم في القرار الخاص بسياسة العلوم لعام ١٩٥٨، إنه واجب فطري لبلد عظيم مثل الهند مع تقاليدها في العلم و التفكير الاصيل، و مع تراثها الثقافي العظيم أن تشارك بشكل كامل في مسيرة العلوم التي تمثل اكبر مشروع للبشرية في الوقت الحاضر.

و قبيل الاستقلال في عام ١٩٤٦ شهدت الهند أبشع أنواع المجاعة في تاريخها التي جعلت المهاتما غاندي يندب "بالنسبة للجائع، الإله هو الخبز" و نظرا إلى ضخامة الفقر اعتمدت الإستراتيجية المركزية المضادة للفقر على خلق وظائف مجدية على نطاق واسع، و أدركت الهند أن التنمية السريعة وحدها يمكن أن تؤدي إلى تخفيف الفقر، لذلك تبنت التخطيط كآلية لبدء التنمية السريعة و الهيكلية مع وجه بشري، و أتخذت الخطوة الأولى في مسيرتنا الطويلة نحو إزالة الجوع في عام ١٩٤٨ بإطلاق الثورة الزراعية عن طريق مشاريع الري و استخدام البذور ذات المحاصيل العالية و مبيدات الحشرات و حفظ الاحتياطات الكافية من الحبوب كإجراءات وقائية ضد المجاعة، و أتخذت الإجراءات لإنشاء عدد من المختبرات القومية المتخصصة تحت رعاية "مجلس البحوث العلمية و الصناعية" الذي تم تأسيسه حديثا، و تطور هذا المجلس إلى شبكة كبيرة تضم في الوقت الحاضر خمسة و أربعين مختبرا و ثمانين مركزا ميدانيا لإجراء البحوث الصناعية في مختلف المجالات العلمية التي تتعامل مع أكبر أنواع التكنولوجيات، كما أتخذت الخطوات لإنشاء الصناعات الخاصة بالآلات الثقيلة و الطائرات و التسهيلات الخاصة بصنع العدد المتطورة و الصناعات الكيماوية و المؤسسات الكهربائية، و تم إنشاء قسم الطاقة الذرية برعاية الدكتور هومي بهابها لإجراء البحوث في العلوم النووية و التقنية، و بوشر بعدد من برامج التنمية الريفية لتحسين نوعية الحياة في

الأرياف الهندية التي تحتضن ٧٥٪ من السكان، كما بدأ برنامج فضائي متواضع في عام ١٩٦٣ برعاية قسم الطاقة النووية و بعد عقد من الزمن أصبح قسما مستقلا عن الفضاء.

و لاشك في أن التنمية التكنولوجية السريعة التي تحققت بعد الاستقلال تركت أثرا مهما على البيئة الاجتماعية ـ الاقتصادية في البلاد، و بفضل الثورة الخضراء لقد ازداد الإنتاج الغذائي السنوي في البلاد من مجرد ٥٥ مليون طن إلى أكثر من ١٩٥ مليون طن مما حول البلاد من مستورد الغذاء إلى مصدر الغذاء الصغير، و ذلك رغم ازدياد التعداد السكاني بثلاثة أضعاف، و جعل شبح المجاعة الذي شوهد في الستينات من القرن الماضي خبر كان، و ارتفعت سعة توليد الكهرباء من ٢,٣ مليون كيلو واط إلى ٨٥ مليون كليو واط، و ازداد إنتاج النفط الخام من ٠,٥ مليون طن إلى ما يزيد عن ٣٢ مليون طن، و الفحم من ٣٠ مليون طن إلى ما يزيد عن ٣٤٠ مليون طن، و الحديد من مليون طن إلى ١٠ ملايين طن، و ازدادت المنتجات المعدنية و السلع الصناعية بعشرة أضعاف، و هذه هي بعض النماذج للنمو الصناعي الذي حققته الهند عن طريق الخطة الخمسية السبع، و ازداد عدد الجامعات من ٢٢ جامعة إلى ٢٤٠ جامعة مع الازدياد المتماثل في عدد المعاهد التقنية، و هكذا ازداد الناتج القومي الإجمالي بخمسة أضعاف، و وصل حجم الصادرات إلى ٣٣ بليون دولار أمريكي.

تقدم الأرقام المذكورة أعلاه صورة إحصائية مؤثرة، و لكن النمو الانفجاري للسكان الذي ازداد من ٣٦٠ مليون نسمة إلى ما يزيد عن ٩٣٥ مليون نسمة في العقود الخمسة الماضية لقد أبطل فوائد النمو بشكل كبير، و نتيجة لذلك لا يزال ثلث سكان الهند تقريبا يعيش تحت خط الفقر، و نسبة الأمية تزيد عن ٤٠٪ من مجموع التعداد السكاني و منه ٦٦٪ إناث، و يعتبر معدل الولادة بـ ٢٩ ولادة لكل ألف نسمة في الوقت الحاضر أكثر بكثير من الهدف المرغوب فيه

و هو اقل من ٢٠ ولادة لكل الف نسمة، إن محدودية التوفر للارض و قلة فرص العمل و نمو كبير للتعداد السكاني ادى إلى التحضر على نطاق واسع كما ادى إلى زيادة كبيرة في التعداد السكاني في المدن و الذي يقدر أن يتجاوز ٤٠٠ مليون نسمة بعام ٢٠٠٠ م، إن عملية التحضر السريع بدورها حولت "المدن الكبيرة الناقصة الخدمات الاجتماعية" إلى المناطق الاكثر قذارة بدلا من أن تجعلها محركات النمو و ذلك بسبب ضعف البنية التحتية للطاقة و النقل و السكن، و تصل نسبة عدد حالة الوفيات بين الأطفال دون الخمسة إلى ١٣٠ طفلا لكل الف طفل، و مع أن معدل العمر ازداد من ٥٠ سنة إلى ٦٠ سنة بعد الاستقلال، و ما لم يزداد الناتج الإجمالي ضعفين على الاقل على أساس مستديم في العقود القادمة سيكون من المستحيل توفير الضمان الأساسي للغذاء لإجمالي التعداد السكاني الذي يقدر أن يصل إلى ١,٥ بليون نسمة بحلول عام ٢٠٤٠م.

و نظراً إلى أن استثمارا ديمغرافيا قدره ٢,٥٪ على الأقل، مطلوب لكل نمو حاصل قدره ١٪ في عدد السكان، فإن الهند تحتاج إلى تبني سياسات التنمية المناسبة التي يمكن أن ترفع نمونا السنوي بمعدل قدره ١٠٪ على أساس مستديم على الأقل، و المشاكل التي تواجهها الهند استثنائية على الإطلاق و نمونجية بين كافة البلدان النامية التي تحتضن ٧٨٪ من سكان العالم، و لكن تساهم بمجرد ١٥٪ في إجمالي الناتج المحلي العالمي، و الهند التي تحتضن ١٦٪ من سكان العالم، تشغل أقل من ٢٪ من مساحة أرض العالم، و اقل من ١,٥٪ من غابات العالم، و تصل فيها نسبة سقوط الأمطار ٢٪ و تمتلك أقل من ٢٪ من تليفونات العالم، و تنتج مجرد ٣٪ من الطاقة المنتجة في العالم، و تساهم بواحد في المائة في إجمالي الناتج المحلي العالمي، و إيرادات الهند من الصادرات تقل من عُشر إيرادات ألمانيا التي تصغر من الهند بعشرات المرات في المساحة و السكان، و رغم كافة التطورات العلمية و التكنولوجية التي

تحققت في الهند أنها تحتل المكانة الخامسة و الثلاثين بعد المائة في قائمة البلدان البالغ عددها ١٧٥ بلدا من حيث نوعية الحياة.

نهب الموارد الأرضية الطبيعية:

لقد ضحت الموجة الثانية من الثورة الصناعية، من غير تعمد، بالبيئة من أجل الحصول على المكاسب الاقتصادية، و بدلا من العيش على الفائدة، لقد ازدهرت التنمية في الماضي أساسا على نهب راسمال الموارد الارضية الطبيعية، و حولت الآثار السلبية للثورة الخضراء المبنية على التكنولوجيا العالية الناجمة عن إشباع الأراضي بالمياه الكثيرة، و عدم وجود نظام الصرف المناسب، و استخدام عشوائي للأسمدة، مساحات واسعة من الأراضي التي كانت خصبة في يوم من الأيام إلى الأراضي الصحراوية الملحية و القلوية، و ادت عملية إزالة الغابات على واسع النطاق بمعدل قدره حوالي ١٧ مليون هكتار سنويا إلى تآكل التربة، و استخدام مفرط للموارد المائية الغالبة على نطاق واسع، و أدى الإهمال الكبير تجاه إشباع الاراضى بالمياه الى تآكل تربة حوالي ١,٢ بليون هكتار من الأراضي الخصبة على نطاق العالم، و تم تآكل تربة مائة مليون هكتار فعلا في الهند، بما فيها مساحات واسعة من سهول الغانج الخصبة من مجموع الأراضي الصالحة للزراعة البالغ قدرها ١٦٠ مليون هكتار، و أصبح النصف منها غير خصبة، و سبب تكرار حدوث الفيضان و الجفاف في الهند خسارة كبيرة في الأرواح قدرها ١٥٠٠ حياة، و فى الممتلكات قيمتها ٣٠٠ مليون دولار سنويا، و الاخطر من هذا و ذاك كله هو الاحتمال الحقيقي لزيادة حرارة العالم بسبب تدخل بشري غير مسبوق في زيادة انبعاث غازات البيوت الزجاجية و التي يمكن أن تؤدي إلى تغيير المناخ، و المشاكل التي يواجهها العالم في الوقت الحاضر بالاخص البلدان النامية منه، تم تلخيصها بشكل جميل في القمة العالمية التي انعقدت في ريودي جينيرو في عام ١٩٩٢ : البشرية تقف عند

لحظة خطيرة من التاريخ، و نحن نواجه تباينات مستمرة بين و داخل البلدان، كما نواجه أسوا الفقر و الجوع و المرض و الجهل و التدهور المستمر للبيئة التي نعتمد عليها في رخائنا، و غير أن إدماج البيئة و الاهتمامات الخاصة بالتنمية و إيلاء الاهتمام الكبير بها، سيؤدي إلى تلبية الاحتياجات الأساسية و تحسين مستوى المعيشة للجميع، و إلى صيانة البيئة و إدارتها بشكل افضل، و إلى بناء مستقبل أكثر أمنا و ازدهارا.

الجانب المشرق يتمثل في أن المشاكل التي يتعذر حلها، تقدم تحديا مثيرا للعلماء و التكنولوجيين ان يضعوا استراتيجيات بشأنها أن تؤدي إلى التنمية المستدامة التي تلبي الاحتياجات الأساسية للأجيال الحالية و المستقبلية بدون تضحية التنوع الحيوي و التكامل و الأمن البيئيين، و يجب أن تُحل المشاكل الناجمة عن الانفجار السكاني و التحضر الكبير بسبب نزوح سكان الأرياف إلى المناطق الحضرية على نطاق واسع بحثا عن العمل المربح عن طريق التصنيع السريع و البنية التحتية المتطورة. إن التطورات المثيرة للإعجاب في مجال الاتصال الفضائي الذي يؤفر فرصة الاتصال البشري على نطاق العالم لقد أدت إلى العولمة متخطية الحواجز الطبيعية و الحدود الوطنية، و ما من شك في أن الفائدة المقارنة في الاقتصاد العالمي المبني على المعرفة و المدمج عالميا لقد انتقلت من الدول المعتمدة على الزراعة و الموهوبة بالموارد الطبيعية الغنية إلى تلك الدول التي تزخر بالقوة الذهنية و التي مصممة على استيعاب و هضم و تبني التطورات الاستثنائية في العلوم و التكنولوجيا و تسخيرها لتنميتها الوطنية.

إن العولمة الاقتصادية بدورها اتت بوعي جديد حول تحديات و احتمالات تحسين نوعية الحياة في العالم بأجمعه عن طريق خلق بيئة جديدة حيث يمكن للحكومات و الصناعات و الشعوب من البلدان المتقدمة و النامية كلتيهما أن

تعمل معا بشكل تعاوني من أجل المنفعة المتبادلة، و يتسم عام ١٩٩١م بخط فاصل في التاريخ الاقتصادي للهند، حيث مرت البلاد عبر تحول نموذجي من السياسة الاقتصادية المنطوية و المقيدة بقيود الإجراءات العالية، إلى السياسة الاقتصادية الموجهة للسوق و المبنية على تشجيع التصدير مع الدور الحكومي المتقلص، و ذلك لتحقيق النمو الاقتصادي العالمي و اندماجه السريع مع بقية اقتصاديات العالم، و في هذا الصدد أود أن أركز اهتمامي على التطور و التقدم الذي حصل في مختلف مجالات العلم و التكنولوجيا في الهند خلال السنوات الأخيرة الماضية.

الثورات : الخضراء و البيضاء

تحققت الزيادة الكبيرة في الإنتاج الغذائي من ٥٥ مليون طن إلى ١٩٥ مليون طن سنوياً على مدى العقود الخمسة الماضية نتيجة الثورة الخضراء التي استلزمت زيادة الري، و استخدام الممارسات الزراعية الأفضل، و تطبيق أحدث المبتكرات في التكنولوجيا الحيوية، و أدت التطورات المهمة في مجال التكنولوجيا الحيوية إلى ظهور البذور المهجنة الجديدة، و أنواع من المزروعات الصغيرة الحجم و المبكرة النضوج، و المزروعات الهجينة المقاومة للحشرات، و استخدام الإستراتيجيات المتكاملة لمكافحة الحشرات. تنتج الهند في الوقت الحاضر ٢٥٪ من عدس العالم، و أصبحت أكبر منتج في العالم للسكر و القطن إذ يبلغ إنتاجها من السكر ٢٦٠ مليون طن و من القطن ١٢ مليون بالة، و مع زيادة مساحات الري من ٢٠ إلى ٦٠ مليون هكتار من الأراضي الصالحة للزراعة، أصبحت الهند ثاني أكبر منتج للرز في العالم، إذ يبلغ إنتاجها من الرز ٢٥٪ من مجموع الإنتاج العالمي للرز. و ثورة بذور الزيت التي بدأت في عقد التسعينات، مكنت الهند من زيادة إنتاجها أربع مرات، إذ يصل ٢٥ مليون طن، و جعلت منها مكتفية بذاتها في إنتاج الزيوت. و أدى انتشار الصناعات الجديدة لمعالجة

الاغـذيـة، و إنـتـاج الأسمدة، و مبيدات الحشرات، إلى زيادة توفر الحبوب من ٤٠٠ غرام إلـى مـا يـزيـد عن ٥٢٠ غـرامـا لكل شخص رغم زيادة عدد السكان من ٣٦٠ مليون نسمة إلى ٩٣٥ مليون نسمة.

و لـكن مـع ذلـك، مـازال مـعدل إنتاجية الحبوب في الهند في أدنى مستواه قـدره ١,٧ طن لكل هكتار مقابل المعدل العالمي قدره ٢,٦ طن لكل هكتار، و أكثر من خـمـسـة أطنان لكل هكتار في البلدان المتقدمة، و مع الممارسات الزراعية الـحـالية، لم يستطع أن يتجاوز الإنتاج السنوي من الحبوب ٢٥٠ مليون طن، حتى مـع اسـتـغلال الإمكانية الكاملة للري و التي تقدر بـ ٨٠ مليون هكتار، و استخدام ٢٠ مـليون هكتار أخرى من الأراضي القاحلة، و لا يمكن تلبية تحدي توفير الأمن الـغـذائـي الـكـافـي لعدد السكان المتوقع بلوغه إلى ما يزيد عن ١,٥ بليون نسمة بـحـلـول عام ٢٠٤٠م و الذي سيتطلب الإنتاج السنوي من الحبوب بما يزيد عن ٣٥٠ مـلـيـون طن، إلا عن طـريـق إطـلاق ثـورة خـضـراء جـديـدة مستديمة. و أشارت الـتجارب الرائدة التي أجريت خلال السنوات الخمس الأخيرة بكل وضوح إلى أنه يـمكن حقاً مضاعفة المحاصيل على أساس مستديم عن طريق استخدام أحدث الـتـكـنـولـوجـيـا الـحـيـويـة مـع الـمعلومات الملائمة من التكنولوجيا الخاصة بـالاسـتـشـعـار عن بعد و لقد أثبت عمليا أن مركبا من المعلومات الفضائية عن الـخـصـائـص الأرضـيـة و الـمـمـارسـات الـزراعـيـة و مـوارد المياه السطحية و الـجـوفـيـة و الـمـنـاطـق الـخـضـراء و الحالة البيئية و المعلومات الجوية مع الـبـيـانـات المتوازية عن العوامل الثقافية و الاجتماعية ـ الاقتصادية، يمكن أن يؤدي إلـى تـحـديـد الـطـرق الـمـنـاسـبة لحفظ التربة و الموارد المائية و زيادة الإنـتـاجـيـة عـلـى أساس مـسـتـديم. و لقد أشارت النتائج في عدد من المناطق الـمـخـتـارة التي أجريت فيها هذه التجربة إلى أنه يمكن زرع المحصولين حتى

في أشد المناطق تضررا بالجفاف، حيث تقل مياه الشرب في أيام الصيف، و شجع هذا النجاح على تبني استراتيجية تنموية متكاملة مستديمة لتشمل ١٧٢ مديرية تغطي أكثر من ٣٠٪ من مساحة البلاد، و أستهلت الثورة البيضاء (عملية الفيضان) في عام ١٩٧٠م باستخدام أفضل السلالات من المواشي و معلومات التكنولوجيا الحيوية، و تمكنت هذه الثورة من تحقيق نمو كبير في إنتاج الحليب بمعدل مركب قدره ٤,٥٪ حيث تجاوز الإنتاج ٧٠ مليون طن في عام ١٩٩٥م، و هكذا تحقق نمو سنوي قدره ٧٪ في تربية الدواجن و تضاعف صيد الأسماك حتى بلغ ٥ ملايين طن خلال الفترة نفسها، مما ساعد على تحسين الأمن الغذائي للشعب، و تقوم عدد من المختبرات المتخصصة التي تتعامل مع البحوث الزراعية و معالجة الأغنية و حفظها و التي تعمل تحت قسم الزراعة و قسم البحوث العلمية و الصناعية المركزي، بمساعدة في إنشاء الصناعات المبنية على الزراعة في كل من القطاع الصناعي المنظم و القطاع الريفي، مما أدى إلى تصدير الأغنية المعالجة بقيمة ٢,٥٪ بليون دولار سنويا.

تلبية الاحتياجات من الطاقة

رغم حصول زيادة قدرها ٤٠ ضعفا في إنتاج الطاقة منذ الاستقلال، لا يزال معدل توفر الطاقة لكل فرد في أدنى مستواه قدره ٠,٤ طن من الفحم مقابل ١١ طن من الفحم في الولايات المتحدة الأمريكية، و من الجدير بالملاحظة أن معدل الاستهلاك من الطاقة لمواطن أمريكي يساوي مرتين لاستهلاك مواطن ألماني، ١٤ مرة لمواطن صيني، و ٢٥ مرة لمواطن إفريقي، و ٣٣ مرة لمواطن هندي، و ٣٠٠ مرة لمواطن نيبالي، و نظراً للطلبات المتنامية على الطاقة لأغراض التصنيع السريع، هناك حاجة لزيادة إنتاج الطاقة بخمسة أضعاف على الأقل، و الذي سيحتاج استثمارا كبيرا قدره أكثر من ٥٠٠ بليون دولار على

مدى العقدين القادمين، و بحسن الحظ، أن قطاع الطاقة الذي كان حكرا على الحكومة، مع عملية تحرير الاقتصاد، فتح أبوابه أمام الاستثمار الخاص، و الذي لا يزال يجذب الاستثمار حتى من الشركات العالمية من خارج الهند.

أدت الصعوبة في استغلال إمكانية كهربيمائية بسبب تضاريس معقدة، و توافر محدود لموارد الطاقة الغير متجددة مثل النفط الذي لا يكاد أن يدوم أكثر من ٢٥ سنة، و الفحم الذي يكاد أن يدوم حوالي ٢٠٠ سنة، إلى اشتداد البحث عن مصادر الطاقة البديلة، و فجرت وفرة الطاقة الشمسية طوال السنة سلسلة من البحوث في برامج كهربيضوئية منذ ثلاثة عقود، مما أدى إلى ظهور نوع تجاري من محطات الطاقة الشمسية بحجم ١٠٠ كيلو واط و الأحجام الصغيرة للاستخدامات الريفية، و يعمل في الوقت الحاضر عدد وجيه من محطات الطاقة الشمسية و البرك الشمسية، و أدت البحوث المكثفة إلى تطوير و إنشاء أكثر من عشرة آلاف محطة بيوغاز كجزء من برامج الطاقة الريفية المتكاملة، كما تم تطوير و تنصيب المحطات الصغيرة للطاقة الكهربيمائية و الرياحية في المناطق العديدة و التي تساهم مجتمعة ١٥٠٠ ميغاواط من الطاقة، و مازالت هناك إمكانية توليد الطاقة تقدر بعشرين أضعاف لهذه الكمية و التي لم يتم استغلالها بعد، كما أن هناك عدد وجيه من البحوث التي تجري في إمكانية استغلال الطاقة المدية و الموجية من البحر، و رغم هذه الجهود، لا تتعدى مساهمة مصادر الطاقة البديلة في الوقت الحاضر ١٪ من الإنتاج الإجمالي للطاقة في البلاد، و نأمل أن تفرج محاولات البحث المكثفة الرامية إلى تطوير مصادر كبيرة للطاقة البديلة القابلة للاستخدام تجاريا و التي تقدر أن يتجاوز إجمالي إمكاناتها خمسين ألف ميغاواط، مشكلة الطاقة في البلاد في العقود المقبلة.

نمو صناعي مؤثر

سجلت صناعة الكيماويات بشكل عام و صناعة الأسمدة بشكل خاص نموا مؤثرا على مدى السنوات الماضية، و جعلت دورة العرض و الطلب من الهند بلدا من البلدان المنتجة الرئيسية للأسمدة في العالم، إذ تبلغ سعة إنتاجها ١٥ مليون طن سنويا، و كذلك شهدت صناعة الأدوية توسعا كبيرا و تنتج كما هائلا من الأدوية التي تفوق قيمتها ٥٠٠ مليون دولار سنوياً لأن سياسة الحكومة تهدف إلى توفير العناية الطبية بأسعار قابلة للتحمل، و تم إنشاء عدد من مؤسسات البحوث لتطوير المستحضرات الصيدلية، و اللقاحات، و الأدوية الجديدة، بعضها أنشئت بتعاون ثنائي أو متعدد من أجل تمكين البلاد من أن تصبح مكتفية بذاتها في إنتاج معظم الأدوية المهمة الضرورية لإنقاذ الحياة.

و رغم المكانة المرموقة التي احتلتها الهند في الصناعة المعدنية خلال عصر الفولاذ، و براعتها في تقنيات صب الخلاف المستخدم في صنع التماثيل البرونزية الأنيقة التي تزين كل معبد من معابد البلاد، ظلت تقنية و فن معالجة المعادن راكدة حتى السنوات الأخيرة، و لم يتم إعطاء الأولوية للتنمية المعدنية إلّا بعد عام ١٩٥٠م عندما وفرت النشاطات الطيرانية و النووية و الفضائية قوة دافعة لها، و أدت البحوث المكثفة التي أجريت منذ ذلك الوقت إلى تنمية أنواع من الاشابة الخفيفة، و الفولاذ عالي المتانة وغيرها من أنواع الفولاذ، و المطاط و البريليوم، و التيتانيوم، و المركبات الخفيفة، و البوليمر، و اللواصق، و الوقود الداسر العالي الجودة للصواريخ، حتى تم تطوير تقنيات الصب المعقدة، و معالجة ميتالورجيا المساحيق، و صنع الآلات الدقيقة، و كذلك التقدم المحرز في مجال الكيماويات الثقيلة، و صنع التوربينات، و الكيماويات و البتروكيماويات، و الأسمنت، و المواد الإنشائية أيضا مؤثر للغاية، و لو لم تحقق الهند اكتفاء ذاتيا في مجال إنتاج رقاقات متكاملة عالية

الجودة، إلّا أن صناعة البرمجيات أصبحت من الصادرات المزدهرة خلال السنوات العشر الماضية و تشكل ٣٠٪ تقريباً من السوق العالمي، و التي تدل على وجود النوعية المتوفرة من القوى العاملة الماهرة في البلاد، كما تم تطوير الكمبيوترات ذات السرعة العالية من النوع السوبر في وجه التهديدات بفرض الحصار و الحظر التجاري و التي أصبحت نعمة في زي نقمة، و يتم اتخاذ الخطوات لإسراع البحوث في المواد الجديدة أمثال الأشابات الخفيفة، و الأجهزة الإلكترونية و الأبتو الإلكترونية، و أنظمة الإحساس المتطورة بما فيها أجهزة الإحساس الحيوي، و المركبات، و المواد المستلزمة على وجه الخصوص للصناعات الفضائية و الدفاعية المبنية على التوصيات الإثنتى عشرة لقوة المهمات المشكلة خصيصا لإعداد "التمكن التكنولوجي للهند في عام ٢٠٢٠م.

لمحة عن الطاقة النووية

إدراكا بأهمية تطوير العلوم و التكنولوجيا النووية، أسست الهند قسم الطاقة الذرية عن طريق قرار برلماني في عام ١٩٤٨م، هدفها الأساسي تطوير و توجيه و استخدام الطاقة الذرية للأغراض السلمية التي تشكل نهجا مغايرا عن السياسة التي تنتهجها القوى النووية، و هو الأمر الذي يغفله أو يهمله المجتمع الدولي غالبا ما، و بهدف توليد الطاقة النووية، و تطبيق التكنولوجيا النووية في الزراعة و الصناعة و الطب، أنشئ عديد من مراكز البحوث، أمثال قسم المعادن الذرية، و مركز بهابها للبحوث الذرية في بومباي، و مؤسسة الهند لليورانيوم، و مركز إندرا غاندي للبحوث الذرية في مدراس وغيرها، و أصبحت الهند اول بلد في آسيا يشغل مفاعله الخاص (APSARA) لأغراض البحوث في عام ١٩٥٦، و رغم السرية التي تكتنف البحوث الذرية، و عدم توافر المعلومات، إنه لمن الواضح أن مؤسسة الطاقة الذرية في الهند حققت تقدما مؤثرا في مختلف المجالات التي تتصل بالفيزياء النووية و تطبيقاتها، و النمو

تطوق انشطة البحوث النووية الميادين المختلفة امثال الليزر و قوة الموانع المغناطيسية و الزراعة و إنتاج النظائر و الطب النووي مستخدمة مفاعلات البحوث العديدة أمثال CIRUS و ZERLINA و PURNIMA و DHRUVA و أول مفاعل مولد سريع في مدراس، و أصبحت الهند مكتفية بذاتها تماما في إنتاج الماء الثقيل مع المحطات الست التي تشتغل لدعم برنامجنا النووي، و تتميز الهند بكونها أول بلد نام قام بإجراء ستة تجارب نووية سلمية ناجحة تحت الأرض، و منها تجربة سلمية واحدة أجريت في عام ١٩٧٤م، و خمسة أخرى ذات طبيعة عسكرية أجريت في مايو عام ١٩٩٨م.

إن برنامج توليد الطاقة النووية الذي يعتبر من أهم الاستخدامات السلمية للطاقة الذرية من قبل بلد يفتقر إلى النفط مثل الهند، لقد بدأ بشكل متواضع في عام ١٩٦٩م، مع تشغيل مفاعلين ذات كفاءة ٢١٠ ميغاواط مستخدما اليورانيوم الخصب في محطة تارا بور النووية بمساعدة من الصناعة النووية الامريكية، ثم أعقبه إنشاء مفاعل الطاقة النووية في راجستهان بتعاون من كندا مستخدما تكنولوجيا الماء الثقيل و اليورانيوم الطبيعي، و منذ ذلك الحين تم تشغيل ستة مفاعلات أخرى تنتج أكثر من ٢٢٠٠ ميغاواط، و بوشر العمل بإنشاء ثماني وحدات أخرى بسعة ٢٣٥ ميغاواط لكل واحدة، و الاثنتان منها على وشك الاكتمال، و النقطة الأساسية لبرنامجنا النووي هي إنشاء المفاعلات محليا باستخدام اليورانيوم الطبيعي كوقود في المرحلة الأولى و تليها المرحلة الثانية لمفاعلات مولدة سريعة باستخدام البلوتونيوم المستخرج من الوقود المستخدم في مفاعلات المرحلة الأولى، و مع تشغيل المفاعل المولد السريع في مدراس عام ١٩٨٤م، تحول الاهتمام إلى تطوير المفاعلات التي يمكن أن تستخدم الثوريوم كوقود لكي يمكننا الاستفادة من الاحتياطي الكبير للثوريوم الطبيعي المتوفر في الهند، و بإنشاء هيئة التنظيم المستقلة للطاقة الذرية التي تغطي

الجوانب التشغيلية و الأمنية للمنشئات النووية تبذل الهند ما بوسعها لتحقيق هدف توليد عشرة آلاف ميغاواط من الطاقة التجارية بحلول عام ٢٠٠٥م.

البنية التحتية الغير كافية

يشكل نقص البنية التحتية في بلد كبير مثل الهند التي تزيد مساحتها عن ٣٠٣ مليون كيلو متر مربع العامل الأهم الوحيد الذي يحول دون تحقق نمو اقتصادي سريع، و حيث لا يتجاوز إجمالي عدد التلفونات في الوقت الحاضر معدل ١,٤ تلفون لكل ١٠٠ نسمة، و في المناطق الريفية تمتد حوالي ألفين يد إلى تلفون واحد، إن سبعين ألف كيلومتر من سكة الحديد و أكثر من مليونين كيلومتر من الشوارع نصفها غير مبلطة، مع أربعين مليون عربة بكافة أنواعها لا تكاد تسد حاجة حوالي بليون نسمة من احتياجات النقل، و يمثل معدل السفر الجوي لكل فرد، على سبيل المثال، ٠,٠١٪ و هو معدل أدنى بعشرين مرة من معدل الدول الصناعية، كما ان هناك نقصا كبيرا في العناية الطبية ايضا، لان توفر حوالي ٤٠٠ طبيب مع ١٠٠٠ سرير لكل مليون نسمة في المناطق الحضرية يترك ٦٥٪ من سكان الأرياف أن يعتمدوا على ٢٥٠٠٠ مركز للعناية الطبية الأساسية، و ١٥٠٠٠٠ مركز فرعي لا يوجد فيه كامل التسهيلات، و لكن تبني سياسة الصناعة اللبرالية لغرض إشراك القطاع الخاص و إنهاء الاحتكار الحكومي وفر قوة دافعة جديدة لإنشاء البنية التحتية بشكل سريع، كما ساعدت سياسة تشجيع الاستثمار الأجنبي بشكل كبير، على الرغم من أن تدفق الاستثمار الأجنبي الحقيقي خلال السنوات الخمس الماضية كان حوالي خمسة بلايين دولار فقط، و ما هو إلا خمس المبلغ المتوقع استثماره، و جزء كبير منه استثمر في قطاع الاتصالات.

برامج الفضاء

يعد التقدم المؤثر في تطوير التكنولوجيا الفضائية منذ عام ١٩٦٣م، و استخدامها لحل المشاكل الأساسية للهند، من أهم الإنجازات التي تحققت فى

فترة ما بعد الاستقلال. إن برنامج الفضاء المدروس جيدا و الموجه إلى الهدف، تم تطويره بشكل منظم، حيث كُرس العقدان الأولان في إنشاء بنية تحتية سليمة و مهارة تقنية و إجراء تجارب واسعة النطاق في تطبيق التكنولوجيا الفضائية. و بدأ تشغيل التكنولوجيا الفضائية على كامل النطاق في عقد الثمانينات من القرن العشرين مع إطلاق سلسلة من الأقمار الصناعية المتعددة الأغراض الإنسات (INSAT) لتوفير الاتصالات في طول البلاد و عرضها و خدمات الأرصاد الجوية و الاستشعار عن بعد (IRS) و سلسلة من الأقمار الصناعية لإدارة الموارد الطبيعية.

حققت الهند أول إنجاز مهم في برامجها الفضائية بالإطلاق الناجح "لآريابهات" أول قمر صناعي لها في عام ١٩٧٥م، و في نفس الوقت أجرت تجربة اجتماعية واسعة النطاق مستخدمة القمر الصناعي ATS-6 من الوكالة الفضائية NASA لتوفير التعليم السمعي البصري في مجال الصحة و النظافة الصحية و الممارسات الزراعية الأفضل و تنظيم الأسرة في ٢٤٠٠ قرية نائية واقعة في ست ولايات. و أعقبها برنامج تجريبي للاتصالات السلكية و اللاسلكية عبر القمر الصناعي مستخدما القمر الصناعي الفرنسي الألماني (SYMPHONY) لفترة سنتين لغرض الحصول على خبرة في إنشاء و تشغيل البنية الأرضية. الإطلاق الناجح لـ (APPLE) أول قمر صناعي تجريبي للاتصالات في عام ١٩٨١م مهد الطريق لإحراز قدرة كاملة من البداية إلى النهاية في الاتصالات بالقمر الصناعي و مكن الهند من أن تتحول بسرعة من المرحلة التجريبية إلى المرحلة التشغيلية.

يعد استهلال ثورة الاتصالات في عام ١٩٨١م عن طريق إطلاق القمر الصناعي الثابت في المدار بالنسبة للأرض و المتعدد الأغراض (INSAT-1B) حدثا بارزا في مجال تشغيل الخدمات الفضائية في الهند، و عقب إطلاق سلسلة من الأقمار الصناعية الثلاثة (INSAT-1) واصلت الهند جهودها في إطلاق

سلسلة الاقمار الصناعية المتطورة المنتجة محليا (INSAT-2) و كل منهما يتمتع بقدرة قدرها ٥٠٪ اكثر من INSAT-1 و INSAT-2E، و يتوقع إطلاق الاخير من الجيل الثاني للاقمار الصناعية قريبا و ستعقبها الاقمار الصناعية الاكثر وزنا و قدرة من الجيل الثالث للإنسات (INSATS).

و على مدى السنوات كبر نظام الإنسات (INSAT) بسرعة و صار واحدا من اكبر أنظمة الأقمار الصناعية المحلية في العالم، و يؤفر مجموعة من الاتصالات و البث الإذاعي و خدمات الأرصاد الجوية حتى للمناطق النائية و الجزر المغمورة بالمياه في البلاد، و مع وجود اكثر من ٦٠٠٠ دائرة الكلام ذات الاتجاهين التي تغطى ١٧٠ مسارا و شكبة أرضية كبيرة مشتملة على ٢٨٠ محطة ثابتة و منقولة، تم استخدام التواصل الجغرافي الشامل للإنسات (INSAT) على نحو مفيد في الاستخدامات المتنوعة أمثال الاتصالات الإدارية و التجارية و الكمبيوترية و الشكبة الخاصة بالرسالة و الأعمال في المناطق النائية (RABMN) و البث الإذاعي و الاتصالات الطارئة. و من أكثر الاستخدامات ابتكارا للإنسات (INSAT) تنفيذ نظام التحذير بالكوارث المحلية الفريد الاتوماتيكي المتكون من ما يزيد عن ٢٥٠ جهاز استقبال مستخدم في النظام التحذيري (DWS) تم نشره في المناطق المختارة و المعرضة للإعصار من السواحل الشرقية و الذي ينقذ آلافا من الأرواح البشرية و الحيوانية كل سنة، و بلغ عدد VSAT الذي يؤفر خدمات ملتيميديا لشبكات مجموعة المستخدمين الخاصة و المغلقة إلى خمسة آلاف و لا يزال يتوسع بمعدل قدره ١٠٠٪ كل سنة.

إن أكثر نتائج الإنسات (INSAT) مذهلة هو التوسع السريع للبث التلفزيوني في البلاد عن طريق تنصيب أكثر من ٨٧٠ جهاز إرسال يؤفر فرصة الوصول لأكثر من ٨٧٪ من سكان الهند إلى الخدمات القومية و الإقليمية، و استخدام محطة ارضية منقولة مثل مركبات جمع الأخبار بالقمر الصناعي

يسمح الآن بالتغطية الواسعة للأحداث المهمة اينما تحدث في البلاد، يتم تشغيل قناتي الاتصال التنمويتين الخاصتين لتغذية أكثر من ٥٠٠ غرفة التعليم/ التدريب عن بعد المنتشرة في كافة أرجاء البلاد، و إدراكا لاهمية نظام الاتصال المتفاعل ذي الاتجاهين، أجري عدد من التجارب التي شملت المستمعين على اختلاف فئاتهم في المناطق الريفية و الحضرية كلتيهما لإنشاء إمكانية استخدام انظمة مرئية واحدة الاتجاه و أنظمة صوتية ثنائية الاتجاه لغرض توفير التعليم التنموي بصورة فعالة، و إن نجاح هذه التجارب شجع على إجراء تجربة واسعة النطاق في مديرية جهابوا بولاية مادهيا براديش، حيث تقوم ١٥٠ محطة الاستقبال بتشجيع التنمية في المناطق القبلية. و إن الإطلاق المخطط للقمر الصناعي GRAMSAT في السنتين المقبلتين سيوفر قمرا صناعيا خاصا بتوفير التعليم عن بعد و خدمات الصحة عن بعد في المناطق الريفية النائية.

و عقب الخبرة الغنية التي اكتسبتها الهند في مجال تجربة الاقمار الصناعية للاستشعار عن بعد BHASKAR-1 و BHASKAR-2 في عامي ١٩٧٩ و ١٩٨١م، بدأت بتصميم و تصنيع أحدث سلسلة الأقمار الصناعية للاستشعار عن بعد. و تعقب الجيل الاول من الأقمار الصناعية للاستشعار عن بعد المشتملة على IRS-1A و IRS-1B في الوقت الحاضر الاقمار الصناعية الجديدة المشتملة على IRS-1C و IRS-1D التي تعد أفضل في مجال تكنولوجيا الاستشعار عن بعد المدنية المعاصرة. و يتم استلام الصور الآن من القمر الصناعي IRS-IC و IRS-ID في الولايات المتحدة الأمريكية و المانيا و تايليندا و البرازيل بتعاون من القمر الصناعي المداري الاوربي ـ EOSAT الامريكي، و الجيل الثالث من سلسلة الاقمار الصناعية IRS قيد التطوير لإطلاقها في السنوات الثلاث المقبلة.

لقد اصبحت الصور الشاملة التي يتم الحصول عليها من الاقمار الصناعية للاستشعار عن بعد (IRS) أداة قوية لرسم التغييرات الزمانية و المكانية في خصائص التربة و أساليب الاستخدام الارضي لتحديد الاراضي الصالحة للحراجة و الزراعة و الرعي و تحديد مناطق المحصول الواحد و المحصولين و تحديد الاراضي المهملة القابلة للزراعة و الأراضي المرلحة. و تستخدم الصور من الأقمار الصناعية حالية لتحديد طبقة صخرية للمياه الجوفية و رسم كتل المياه السطحية و تخطيط المناطق المغمورة بالمياه و تنبؤ عوائد المحاصيل الرئيسية. و يتم توزيع نشرة نصف أسبوعية مع تحديد مناطق محتملة لصيد الأسماك في البحر بناء على حرارة البحر و توزع النباتات المغمورة، على صيادي الأسماك في المناطق الساحلية بشكل منتظم و ذلك لغرض زيادة صيدهم من الأسماك. و قد أصبح الاستشعار عن بعد حاليا اهم أداة لتخطيط المدن و رقابة البيئة و إدارة الموارد القومية الطبيعية.

إن التكنولوجيا الخاصة بتنبؤ و رقابة و إدارة الجفاف و الفيضانات و الاستخدام المتطور للصور من الاقمار الصناعية الخاصة بالاستشعار عن بعد، ساعدت في تطوير الاستراتيجيات لمعالجة مثل هذه الكوارث الكبرى. و في حين توفر فيه سلسلة الاقمار الصناعية (INSATS) مع قدرتها على تصوير السحب بشكل مستمر على شبه الجزيرة الهندية باكملها تحذيرا مبكرا عن الأعاصير، فإن الصور من الأقمار الصناعية الخاصة بالاستشعار عن بعد تساعد في رقابة و إدارة كوارث الفيضانات، و هكذا أصبحت المؤشرات الخضرية المشتقة من الاستشعار عن بعد على اساس نصف أسبوعي مجتمعة مع المعلومات عن الأرصاد الجوية اداة مهمة للتنبؤ المبكر عن حلول الجفاف.

إن المعلومات التي تم الحصول عليها من الفضاء عن خصائص التربة و الممارسات الزراعية و موارد المياه الجوفية و السطحية و الكساء الخضري

و الوضع البيئي و المعلومات عن الارصاد الجوية لقد مكنت من تنفيذ التدابير المناسبة لحفظ التربة و المياه على المستوى الفردي، كما يتم تنفيذ المعلومات الفضائية مجتمعة مع معلومات التكنولوجيا الحيوية ذات الصلة مثل البذور المهجنة و الاستراتيجيات المتكاملة لإدارة مبيدات الحشرات و الممارسات المناسبة للزراعة و الاستراتيجيات المتكاملة للتنمية المستدامة في ١٧٢ مديرية من مديريات البلاد.

و التقدم المحرز في تكنولوجيا الصواريخ لا يقل أهمية، لقد بدأت تكنولوجيا الصواريخ بشكل متواضع من خلال تطوير مركبة إطلاق الصواريخ (SLV-3) التي نقلت حمولة قدرها ٤٠ كيلو غراما إلى الفضاء عام ١٩٨١م، ثم بُذلت مجهودات منظمة لزيادة قدرة مركبة الإطلاق بشكل سريع لكي يتم صنع المركبات القادرة على إطلاق الأقمار الصناعية من فئة INSAT و IRS. و عقب الإطلاق الناجح لمركبة إطلاق الأقمار الصناعية المتطورة ASLV القادرة على إطلاق الأقمار الصناعية من فئة ١٥٠ كيلو غراما، تم تطوير مركبة إطلاق الأقمار الصناعية القطبية PSLV التي بعد ثلاث تجارب ناجحة قامت بإطلاق القمر الصناعي للاستشعار عن بعد IRS-LD ذات حمولة ١٥٠ كيلو غراما في ٢٩ سبتمبر عام ١٩٩٧ إلى المدار القطبي. و مع تطوير التكنولوجيا الصاروخية، يُتوقع أن تكون مركبة إطلاق الأقمار الصناعية الثابتة في المدار بالنسبة للأرض (GSLV) القادرة على إطلاق الأقمار الصناعية من فئة ٢,٠ طن إلى مدار Geostationary جاهزة خلال السنة المقبلة، و بذلك ستحقق الهند اكتفاء ذاتيا في برامجها الفضائية. و يعتبر الإطلاق الناجح لأكثر من ٢٠ قمرا صناعيا بما فيها سبعة لـ Geostationary و اربعة للاستشعار عن بعد و تطوير مركبة الإطلاق الثقيلة PSLV و GSLV و تشجيع التطبيقات الواسعة في مجال الاتصالات و الأرصاد الجوية و إدارة الموارد الطبيعية خلال ثلاثة عقود

من الزمن و بتكلفة متواضعة لا تتجاوز عن ثلاثة بلايين دولار اداء ممتازا بكل المقاييس و أهميته واضحة للعيان.

رغم انتهاء الحرب الباردة، لم يتحقق حلم خلق جو ملائم للتعاون الدولي بشكل كامل، و البيانات الفلسفية مثل "إذا كان علينا أن نقود العالم إلى مستقبل متفائل يجب علينا أن نفهم بان التكنولوجيا هي جزء من البيئة الكوكبية يجب أن نشاركها مع بقية البشرية مثلما نشارك الهواء و الماء" يتم الإدلاء بها في كل محفل. و لكن الحقيقة تفيد أن العلوم و التكنولوجيا باتت عملة قوية للقوة التي تمتلكها و تحتكرها حفنة من الدول المتقدمة التي تستخدم الهيمنة التقنية لتأثير و تحكم العالم. لذلك لا تدعو الضرورة إلى إقامة نظام اقتصادي عالمي جديد حيث تتقدم كافة الدول على أساس المشاركة المتساوية عن طريق مشاركتها هبات العلوم و التكنولوجيا في الألفية الجديدة فحسب، و إنما إلى تحقيق اكتفاء ذاتي في هذا المجال الخطير المهم الذي حتما سينفع شعب هذا البلد بشكل كبير.

تعريب: د/ حبيب الله خان

تكنولوجيا المعلومات
هي الصناعة من صناعات المعرفة

بقلم: أشوك سوتا

أخبرني صديق لي بأن سوفتوير (Software) شانه بالنسبة للهند شأن النفط في الشرق الأوسط. فكان وصفه هذا وصفاً رائعاً لما للهند من اهمية في هذا المجال (سوفتوير). و عندما أنا تمعنتُ في قوله دار في خلدي الكثير من الافكار و الصور مثل:

ـ التطورات التي حدثت في مدينة بانغلور (Banglore) فأصبحت نقطة محورية أولى لصناعة أشياء طرف (Yuppie Industry).

ـ ظهور مراكز النمو الجديدة في جميع أنحاء الهند و اننتشار معاهد تعليمية لصناعة سوفتوير.

ـ تقرير البنك الدولي بأن الهند أكثر البلدان أفضلية في موارد سوفتوير و هو ما يثير العجب في سياق الدراسات الأخيرة التي تقدّر النقص العالمي بخمس مئة ألف مهندس في مجال "سوفتوير".

كما عادت بي الذاكرة إلى زيارة قمتُ بها إلى جامعة مدينة رُركي (Rurkee) حيث عرفت ان قدراً كبيراً من الطلاب من مختلف المجالات الهندسية قد نهلوا من مناهل هندسة سوفتوير، و أغرب من ذلك أن الطلاب بأنفسهم كانوا قد نَظّموا دورات سوفتوير تكملة للمنهج الدراسي و مازاد من إستغرابي هو ما لاحظته في زاوية إعلانات الزواج في الصحف الهندية حيث إن

مـهـنـة سوفتوير وصلت بالمهندسين و الدكاترة إلى أفضل درجة و أرقى مستوى، فـيودّ كل شخص من الفئة المتوسطة أن يكون طفله ملماً بعلوم كمبيوتر، و قد جـذب سـوفـتـويـر فـعلاً اهتمام العالم كله. و هنا أنا تيقّنت أن صديقي كان على صواب فيما ذهب إليه.

و رجـعت بي الذاكرة إلى حقيقة أخرى و ذلك عندما تذكرت ما قاله المعلم و الـمـرشـد الـشهير الدكتور س. ك براهلاد (C. K Prahlad) من أن الهند ليست لـهـا صـنـاعة سوفتوير فأثار اعتراض الدكتور هذا الدهشة و اليقظة لدى جميع مَن حـضـر الاجـتماع الذي عقدته أو نظّمته جمعية الصناعات (ناس كام Nas Com) و الـتـي وجـهـت الـدعـوة إلـى الـدكـتور براهلاد لإلقاء الكلمة عن صناعة سوفـتـويـر و ذلـك عـام ١٩٩٥ فـكـانـت رسـالـة الدكتور واضحة الدلالات و هي أنه لا يـكـفـيـنـا أن نـعمل للآخرين و نعتمد عليهم بل يجب علينا أن نطوّر ما لنا من منتوجات خاصة و عقول مدبرة واعية إلى جانب ما يوجد لدينا من قدرات تنفيذ الـمـشـاريـع الـمـشتركة، فلا اعتبار و لا أهمية إذا قام مهندسونا بتنفيذ مختلف المشاريع هذه بدون أن ينالوا فرصاً لإستيعابها و ادراكها.

هـذا و مضى د/ براهلاد قائلاً إن صناعة سوفتوير (Software) تعتمد في جـلـب الأربـاح على حساب المحترفين و هو فارق لن يدوم إلى الأبد ـ كما توقفتُ بـرهـة لأتأمل فيما حققته الهند من إنجازات رائعة عملاقة في مجال تكنولوجيا الـمـعـلـومـات (IT) فـبـرز أمـامـي مـنـهـا فـي الطليعة ما قدمّه العلماء الهنود و الـمقاولون منهم الذين يتمركزون في وادي سيليكان (Silicon Vally) فهذا إن دلّ عـلـى شيء فإنما يدلّ بوضوح على استنزاف الدماغ و ليس على تعزيز راسمال الـبـلاد الـفـكـري. فهناك عدة إسهامات ممتازة في سوفتير إلى برامجنا الخاصة بـالـصـواريـخ و الـفـضـاء إلا أن الـسـاحـات الـتجارية و الصناعية لا تحظى بأي ابـتـكـارات مـاعـدا بـعـض الاسـتـثـنـاءات. و يقوم مهندسو سوفتوير الهنود حاليا

بتطورات ابتكارية و ذلك في الأراضي الهندية إلا ان العمل على بعض الاعمال الهامة لا يتم إلاّ في معامل البحوث التي تمتلكها و انشأتها الشركات المتعددة الجنسيات المتواجدة في الهند.

حالة الصناعة:

و هُنا يحلو لي إلقاء نظرة عابرة و تقييم حالة الصناعة و ما لها من أهمية في مستقبل الهند. فهناك صورتان مُضادّتان تماما لنشوء الصناعة و ظهورها. أولهما: ما يؤدّي إلى نزيف الدماغ أو بتعبير آخر هجرة الحقول كما هو الحال بالنسبة إلى مهندسينا حيث إنهم إما يغادرون البلاد أو يتحولّون إلى من يمجّدون و يُشيدون بالمبرمجين (Programmers) . أما الصورة الثانية فتخص إنشاء صناعة متحركة و فعّالة تصل بالهند إلى القرن الحادي العشرين و تُساعدها على سد الفراغ و تقليل المسافة بينها و بين الغرب، و أنا متفائل بازدهار مستقبل الهند و واثق كل الثقة بأن جهودنا لن تذهب سُدى و إنما تُكللّ بالنجاح في نهاية المطاف. كما أنا أرى أن البديل الإيجابي الأخير سوف يكون له السيادة. و فضلا عن تفاءل فطري يوجد هناك سبب تصوري منطقي لتفاءلاتي بالمستقبل، فلابد لنا أن نعتبر صناعة سوفتوير (Software) جزءا كبيرا من صناعة تكنولوجيا المعلومات المتكاملة و نعتبر صناعة تكنولوجيا المعلومات بالذات من أهم صناعات المعلومات.

و يقول السيد بيتر دروكر (Peter Drucleer) أحد كبار المفكرين في الوقت الراهن في مقال له بعنوان "عصر التحول الاجتماعي" إننا ندخل حاليا في نظام اقتصادي سيكون فيه العلم و ليس العمل أو المورد الخام هو المورد الرئيسي. و يستمر السيد بيتر قائلاً إن حالة التنافس لدى كل دولة أو صناعة أو معهد في المجتمع ستعتمد على الحالة الانتاجية لأعمال المعرفة، أما الدول

النامية مثل الهند فإن من مصلحتها أن لا تكون هناك أية دولة تحظى باحتكار المعلومات، و أن نسبة المعلومات لدى عديد من الصناعات متفاوتة إلى حدّ كبير. فكلّما صغُرت دورات الحياة الإنتاجية استطاعت الهند استغلال حالة اضطراب التكنولوجيا لتنشقّ طريقها إلى أسواق و صناعات جديدة.

و الجانب الإيجابي الآخر لصناعات المعلومات هو أن كل من لديه فكرة للنمو يمكن أن يكون مقاولاً. و أعطى تطور صناعي في الماضي السهم الاكبر من جائزة المشروع الصناعي لصناعات سيطرت على الراسمال و سيُعتبر الراسمال مستقبلاً من أهم وسائل المعلومات الحقيقية، و تُفيد المؤشرات بأن موارد الرأسمال المضاربة ستتوفر في الهند بقدر كبير و ستُثير موجة الطاقة الخاصة بالمقاولة لدى الصناعيين و المبتكرين أساسا و الذين مازالوا بحاجة إلى إتاحة الفرصة لهم. و ليس من الاسف أن أفضل الأعمال و أحسنها يتم في معامل مراكز الشركات المتعددة الجنسيات المتواجدة في الهند. و إنما المهم أن العمل يتم أو يجري بواسطة الهنود و هو ما تكمن فيه المعرفة. و كلما ازداد محتوى و نطاق السوفتوير لزم علينا أن نزوّد البلاد بما هو أحسن. فتقول المؤشرات أيضا إن الكثير من الشركات الهندية لتكنولوجيا المعلومات قد أخذت مأخذ الجدّ ما نصح به د/ براهلاد (Dr. Prahlad).

و قد تكون الخطوات المتخذة حتى الآن قصيرة و غير كافية إلّا أن الخطوات الأولى قد اتخذت إيذاناً ببداية الرحلة في هذا الصدد. هذلو قد ذكرنا سابقاً أن معظم نزوح الدماغ من المحترفين الهنود في مجال سوفتوير كان إلى امريكا و قد ترتبت عليه نتائج ايجابية فكانت العقول الهندية الذكية قد قامت بواجبها في الخارج خير قيام، و معظمها رغم وصولها إلى أعلى مناصب السلطة ترّفع من شأن الهند كدولة ذات قاعدة الموارد الضخمة، فما لم نستطع تحقيقه، عندما كانت الغرب تبحث عن اسس الإنتاج البديلة حققناه من في

مجال سوفتوير و هو قد يكون بمثابة حرب اكثر اهمية لابد لنا من الفوز فيها، و الجانب الآخر من الحضور الهندي في الخارج أن الهند قد شجعت كذلك جهود المقاولات فقد لنشأ الهنود المتواجدون في امريكا منظمة تُدعى "TIE" من شأنها تسهيل مثل هذه المشاريع، كما بدأت خطوة نهائية متمثلة في عودة الهنود من امريكا ليقوموا بانشاء مشاريعهم الخاصة في وطنهم الاّ ان عودة المهاجرين لم تزدد قوة و نشاطا، الأمر الذي ساعد تايوان لتظهر كزعيم عالمي في توفير خدمات "هاردوير" Hardware.

على الرغم من أن عملية التقطر الضئيل لا تؤدي إلى فيضانات في المستقبل القريب إلاّ أن فئة قليلة من مثل هولاء الأشخاص يمكن أن يقوموا باحداث تغيير جوهري، فإنني تجنّبت سرد الامثلة و ذكر أسماء المنظمات التي نجحت جهودها في إنتاج المنتوجات و دفع عربة المعلومات إلى الامام، كما لم اتناول أو اذكر الاشخاص الذين أخذوا على عاتقهم مهمّة المقاولات و السبب في ذلك أن قصص النجاح عبارة عن قائمة طويلة إلى حدّ ما، فلا يحلو لي أن أتناول البعض دون الآخر و مادامت الجهود تُبذل من قبل الجيل الجديد فإن النجاح سيكون مختلفا عن نجاح الأوائل.

غياب تطبيقات رائدة متمشية مع العصر:

إن نقطة الضعف في محاولتنا لتطوير صناعة سوفتوير يكمن في غياب تطبيقات رائدة متمشية مع العصر في البلاد و هو يجرّني إلى موضوع تكنولوجيا المعلومات فالمهم للهند في تكنولوجيا المعلومات ان تُحرز النجاح على أساس طويل الامد و الأهم من ذلك أن تستخدم الهند هذه التكنولوجيا لتكون صناعاتنا اكثر منافسةً و حكومتنا أكثر كفاءةً. و يُعتبر تحقيق النجاح في مجال "سوفتوير" نجاحا ليس بعده نجاح في أية صناعة إذ أن الاستخدام

الصحيح لطاقة تكنولوجيا المعلومات سيمكّننا من إحراز التقدم على كثير من الساحات فإن تكنولوجيا المعلومات تحظى بأثر و قوّة تطابق كلاًّ من الوقت و المسافة و يمكن استخدامها لإيجاد منتوجات جديدة بأسرع وجه و لتعزيز معقول المواصلات كما يمكن استخدامها لتطوير جودة و إنتاجية عملية التعلّم و ذلك بواسطة الإعلام بمختلف أنواعه و بواسطة التعلّم عن بُعد إلى جانب استخدامها في تنشيط الزراعة و تحسين خدمات الإدارة في جميع مجالات الاقتصاد. فالفوائد الناجمة عن تكنولوجيا المعلومات لا تُعد و لا تُحصى. أننا نعيش عصر تكنولوجيا المعلومات و قد اصبح هذا كثير التردّد على الألسنة و فكرة عامة لدى الجميع. و في النظرة الأولى يبدو ان تكنولوجيا المعلومات لم تتمكن بعد من إيجاد عالم عديم الحاجة إلى استخدام الورق رغم الابتكارات المختلفة بما فيها تطورات طرأت في فحص الصوت و الذكاء الصناعي و ما إلى ذلك. و على كل حال فإن ظاهرة الإنترنت توفّر قدرة على الاتصال و فرصة لنيل المعلومات على النطاق العالمي، الأمر الذي أدى إلى توسيع نطاق التجارة الإلكترونية بشكل غريب. و قد نلاحظ قريبا إمكانية وجود عالم لا يحتاج إلى استخدام الورق فهل تفكّر الهند في انتهاز هذه الفرصة أو ستبقى متخلفة.

تحدثت مُسبقاً عن تطبيقات رائدة للعصر في البلاد فإن غيابها يترتب عليه دلالات خطيرة في صناعة "سوفتوير" فليس لدينا سوق محلية يمكن استخدامها كأساس للاختبار و كمعمل لإجراء التجارب و الاختراعات الجديدة و ذلك لأنّ نسبة قليلة فقط من الشركات تخاطر بمثل هذه المغامرات في الأسواق العالمية. فاذا لم نفكّر في خوض المغامرات فاتتنا فرص التعلم و النمّو. و يرجع لحد الأسباب إلى الماضي إذ لم يكن جونا المُغلق آنذاك ملائماً لبراعة الصناعة لتكون هي الأولى في العالم و حتى بعد أن فتحت البلاد أسواقها كان غياب البنية الأساسية هو عامل التخلف و يمكن القول باعتزاز هنا أن البنية الأساسية للاتصالات أفضل بكثير مقارنة مع البنية الأساسية للمواد الأخرى.

و مازالت تسهيلات الاتصالات داخل البلاد و خارجها تتوفر أكثر بكثير مما هي في الدول المتقدمة. و هناك حاجة إلى إيجاد خدمات الاتصال القليلة التكلفة لينجح تنفيذ مشاريع سوفتوير النائية و كانت الحكومة قد اتخذت خطوة إيجابية إذ اعلنت عن سياسته الخاصة بالإنترنت و علينا أن نتفاءل أن العقبات لن تحول دون تنفيذها و لن تقف في سبيل إنشاء البنية الأساسية للإعلام القومي ممّا سيكون بمثابة مفتاح للتعريف بالتجارة الإلكترونية كما سيُتيح للصناعة الهندية فرصة لاستخدام هذه الأداة الجديدة للتجارة و يمكنا بالتالي من إقتحام أسواق عالمية جديدة، كما ستُساعدنا في التغلب على ما نعاني من نقص و عجز في وجود قنوات التوزيع في الخارج.

هذا و تسعى الصناعة الهندية حاليا أن تصبح جزءا من التجارة العالمية و منافساً قوياً لها. فإذا أردنا لأعمالنا التجارية إعطاء طابع تكنولوجيا المعلومات فيجب ألا نستخدم تكنولوجيا المعلومات كشيء مميّز فحسب بل نحتاج إلى تطبيقات ابتكارية جديدة أيضا و عند ذاك سيكون لصناعة "سوفتوير" جوّ مقبول يمكن فيه معرفة أفكار و مشاريع و خدمات جديدة من شأنها تحقيق التقدّم و النجاح أولاً في الداخل و بالتالي في الخارج. و إن إطلاق مشروع جديد لتكنولوجيا المعلومات بنجاح حاليا يُعتبر شرطا أساسيا لضمان النجاح في البلاد و بما أن تكنولوجيا المعلومات يمكن أن تعكس على كل معهد و على كل وظيفة و عملية فإنه يتحتّم علينا أن نزيد من إيجاد سُبل النجاح لصناعتنا من "سوفتوير" و ذلك باستخدام تكنولوجيا المعلومات وفقا لمتطلبات العصر.

العامل الإنساني:

و هنا أوّد أن أجذب اهتمامكم إلى أهم الموارد الكفيلة بإحراز النجاح في مجال صناعة تكنولوجيا المعلومات، الا هو الشعب نفسه، نعم، الشعب بكل

تاكيد. فهذا ليس أمرا غريبا في صناعة المعلومات المكثّفة و يبدو أن للهند مهارة طبيعية ـ لبعض الأسباب ـ في تطوير "سوفتوير" فقدرتنا على التحدث باللغة الإنجليزية تجلب لنا فوائد كثيرة و لكن نظراً إلى أهمّية الأسواق الأخرى تُبذل الجهود لتعلّم اللغة اليابانية بالإضافة إلى اللغات الأوروبية الأخرى و ذلك في محاولة لتحقيق هدف أكبر في هذه الأسواق، فشعبنا من حيث التقنية يُعدّ شعباً سريعاً في التعلّم و إحراز الفوز لكونه شعبا صناعيًا يتميز بضمير حيّ و أحسن من غيره من الشعوب. أما النقد الرئيسي الذي يأتي من قبل الزبائن فهو لقلّة المهارات و ضعف الاتصالات و عدم قدرتنا على الرد بـ "لا" و لأجل ضعف إدارة المشاريع. فإن برامج التدريب الشاملة وغيرها ستساعد في التغلب على النقائص و التحديات عبر فترة من الزمن. و على شاكلة مطوّري برنامج سوفتوير في مناطق أخرى من العالم توجد لدى شعبنا رغبة قويّة في التحلّي بمواهب و مهارات جديدة و الرغبة في الولاء لكل من الصناعة و الزبائن.

و يدعى كبير الموظفين لأكبر منظمة تدريبية متواجدة في الهند أنه تم فيها حتى الآن تدريب ما يقارب مليون شخص إلى جانب مئة مليون آخرين سينتهي تدريبهم قريبا. و المسئولية العظيمة تقع على الشركات المعنيّة بخدمات سوفتوير. و ذلك أن تقوم هذه الشركات بتعزيز المهارات و تشجيعها باستمرار لأن معظمها تتمتع ببرامج تدريبية جديدة و مطلوبة. و قد تمكنت بعض الشركات من تحسين علاقاتها و تطوير برامجها مع المعاهد التعليمية الرائدة.

و هنا لابد من الاعتراف بالدور الذي قامت به الحكومة في هذا الصدد. ففي العصور الأولى لهذه الصناعة كان ـ لحسن الحظ ـ قد وجد أصحاب الطموح و الأحلام في قسم الإلكترونيات وغيرها من الأقسام الحكومية فساعد هؤلاء الأشخاص كثيرا على خلق جوّ ملائم لظهور و تشجيع هذه الصناعة حيث

وجدت (Software Technology Parks) في جميع انحاء البلاد كما توفّرت خدمات الاتصالات إلى جانب فوائد مالية اخرى، فكان التركيز على التعليم و التدريب، و ليس غريبا إذا قلنا إن الرغبة و الإرادة القومية يرجع إليهما الفضل على السواء في تحقيق النجاح لهذه الصناعة. ففي دولة معروفة بساستها الأكثر شعبية يوجد بيننا كبير الوزراء الذي بنفسه أبلغ هيئة الإعلام كيفية و طريقة استغلاله شخصيًا لتكنولوجيا المعلومات و ذلك لمصلحة الولاية لتتحول إلى ما هو أحسن و أفضل. فيا حبذا اذا وجدت نفس الحماسة لدى بقية الولايات فتتخذ لها خطوات و برامج مماثلة.

هذا و قد نالت صناعة "سوفتوير" الهندية سمعة طيبة و ذلك لكونها اقلّ كلفة و أحسن جودة فإنها مفخرة لنا إذ أنها قد ركزت منذ بدايتها على عمليات و على تقديم أحسن خدمات للزبائن. و قد عكست جودة التقديم هده جرئيا دراسة قامت بها منظمة التجارة الدولية و جاء فيها أن الهند تمثّل أكبر نسبة مئويّة في عالم الشركات الخاصة بـ "سوفتوير" لتحصل على شهادة من منظمة المقاييس الدولية (ISO) و ستصبح الدول المعنية بتوفير خدمات ذات اقل قيمة و أعلى جودة مثل الصين و الفلبين و النمسا دولا تشكّل تحدّيا لنا مرور فترة من الزمن.

كما يرجع الفضل إلى الهند في اختراع الصفر فلولا هذا الصفر المتواضع لما كان عالم تكنولوجيا المعلومات هذا قد شهد النور فالصفر يمكن أن يحتل مكان الصدارة بين اهم الاختراعات عبر جميع العصور و تستفيد منه الإنسانية. و على الرغم من أن الهند لم تطلب من العالم اية رسوم أو أجرة على هذا الاختراع إلاّ أن الجائزة الكبرى لها ستكون إذا فازت في المعركة القادمة بزعامة صناعة "سوفتوير" و انا واثق بنجاح الهند، مما سيكون من اهم الصناعات و القوة المحوّلة لخمسين سنة مقبلة للهند.

و أخيرا أعود إلى ما قال له صديقي عن صناعة سوفتوير في الهند حيث شبه ذلك بالنفط في الشرق الاوسط، و على كل حال فإن صديقي فيما يبدو كان على صواب. فإن كلاّ من سوفتوير و تكنولوجيا المعلومات يفوق في الأهمية نفط الشرق الأوسط، و على الرغم من أن النفط عبارة عن مورد طبيعي ضخم إلاّ أنه سيجد له بديلاً في النهاية و ذلك في شكل التكنولوجيا التي سيستمر محتواها وسعتها في النمو و الانتشار. اما تكنولوجيا المعلومات فلايمكن ان يكون لها بديل إلى الأبد ما دامت تبقى وسيلة اعلامية.

تعريب: عبد الله عبد الرحمن فضل

التعليـــــــم:
تقدم غير متساوٍ و خيارات صعبة

بقلم: تاباز ماجومدار

مدخل:

فيما يخص الأعداد المحضة، فقد سجلت المعاهد التعليمية في الهند و عدد الطلاب المسجلين فيها، معدلا هائلا جدا للنمو، في جميع مراحل التعليم، بدءا من المرحلة الابتدائية حتى المرحلة الجامعية، عبر الخمسين سنة الماضية. و إن هذا في ذاته نجاح كبير. إننا نبدأ أولاً بملاحظة بعض الحقائق بهذا الخصوص. هناك سؤالان آخران لهما علاقة وثيقة بأي تقييم حقيقي لتقدم التعليم. و هما (أ) كيف تتراءى هذه الأعداد حين يتم مقارنتها بين الولايات و المناطق و الطوائف الدينية، و بين البنين و البنات، و (ب) ماهي جودة مواد التعليم التي يتم نشرها و ماهي أهميتها للمجتمع. نحن سوف نبحث عن هذين السؤالين فيما بعد.

و كما يدرك المرء من سياسة "التعليم للجميع" (حكومة الهند، ١٩٩٧) إن التوسع في التعليم الابتدائي منذ الاستقلال كان سريعا و واسعا، اما فيما يخص عدد المدارس و تسجيل الطلاب فيها. فقد ازداد عدد المدارس الابتدائية (فصول ١ ـ ٥) من ٢٠٩,٦٧١ في عام ٥١ ـ ١٩٥٠ إلى ٥٦٥,٧٨٦ في عام ٩٢ ـ ١٩٩١. و خلال هذه الأعوام بالذات، ازداد عدد المدارس الابتدائية العالية (فصول ٦ ـ ٨) من ١٣,٥٩٦ إلى ١٥٢,٠٧٧. و بالإضافة إلى تواجد هذه المدارس في عام ١٩٩١، كانت هناك

٢٧٠,٠٠٠ مركز تعليمي غير رسمي، و بلغ عدد الطلاب المسجلين في كلتا المدرستين ١٣٦ مليون طالب؛ بالمقارنة إلى ٢٣ مليون طالب في عام ١٩٥١. و إن الازدياد الاكثر إثارة حدث في المرحلة الابتدائية العالية، حيث قفز التسجيل من ثلاثة ملايين في عام ٥١ - ١٩٥٠ إلى ٣٥ مليون في عام ٩٢ - ١٩٩١. و لا شك أن أعداد التسجيل هذه مضلة إلى حدما - و إذا كانت صحيحة فإنها تبرر الدعوى التي تضمنه "التعليم للجميع" بانه تم تحقيق توفير وسائل كاملة للتعليم إلى حد كبير في المرحلة الابتدائية (فصول ١ - ٧). غير أن مثل هذه الدعوى تفقد كثيرا من اعتبارها نظراً إلى (أ) أن عدد التسجيل الرسمي المبني على سجلات المدارس غامض و غير جدير بالثقة، و (ب) أنها متعارضة مع الإحصائيات التي تعرضها عدة مسوحات رسمية مستقلة يتم إجراءها بصورة دورية (مثل عدة جولات للمسح العيني الوطني، و المسح التعليمي لعموم الهند و ما إلى ذلك) و لكن مما لا شك فيه أن اتساع التعليم الابتدائي كان هائلا عبر الخمسين سنة الماضية.

و على الطرف الآخر لمجال التعليم، كان هناك نمو ضخم على حد سواء في عدد معاهد التعليم العالي و تسجيل الطلاب في قطاع التعليم الجامعي. فقد كانت هناك ٢٥ جامعة و ٧٠٠ كلية في الهند في عام ١٩٤٧م، و لكن بحلول منتصف التسعينات ازداد عدد الجامعات و شبه الجامعات و المعاهد ذات الاهمية القومية إلى ٢١٤، و لا يزال في الاتساع. كما كانت هناك ٨٢١٠ كلية في عام ١٩٩٤. و هي الاخرى تزداد عددا بحلول كل دورة تعليمية، الأمر الذي جعل المناداة على اسماء الطلاب امرا صعبا لحدما. و إن عدد الطلاب في قطاع التعليم العالي كان أكثر من ١٠٠,٠٠٠ بشيء في عام ١٩٤٧، و لكن بحلول ١٩٩٤ ارتفع هذا العدد إلى أكثر من خمسة ملايين أو من خمسة أضعاف (ديساي، ١٩٩٥ و ماجومدار، ١٩٩٦)!

و مهما يُظن عن الاتساع العددي المحض للمعاهد التعليمية و تعداد الطلاب فيها بعد الاستقلال، إن صورة تقدم الهند في مجال التعليم قد تشوهت تشوها سيئا جدا نظرا إلى تواجد نقصين كبيرين. إن توزيع المكسب التعليمي و وسائل الوصول إلى إحراز التعليم مازال كلاهما غير متساويين بين المناطق و الطوائف الدينية و الأجناس. و مضافاً إلى ذلك، إن التعليم الذي يتم تلقينه، يوجد بصورة عادية في أكثر الأحيان ذا نوعية ردئية، كما يكون غير ذا صلة حينا من وجهة نظر احتياجات محل العمل.

و ليس من الحق أن الآباء المؤسسين لم يكونوا أعاروا عناية كافية لواجب إنشاء نظام تعليمي يتطابق تماما مع احتياجات و طموحات الهند المستقلة. بل الحق أنه قبل زمن طويل من الاستقلال، إن المفكرين الاعلام من أمثال السير اشوتوش موكيرجي، و رابندراناث طاغور، و سري اوروبندو، و مهاتما غاندي، و الشخصيات السياسية ذات المنزلة الرفيعة أمثال جواهر لال نهرو، و أبو الكلام آزاد، و ذاكر حسين، كانوا يدافعون عن إصلاحات هيكلية أساسية في النظام التعليمي. فليس من العجب أنه بعد نيل الاستقلال بالفور، و قبل اية دولة نامية، و حتى الصين، كانت الهند قد شرعت تأخذ عدّتها لإنشاء نظام تعليمي ينسجم مع العالم الصناعي الحديث، و يجعل الهند دولة متقدمة على المستويين التعليمي و التقني في أقرب وقت ممكن.

في السطور القادمة، نحن نصف أولا باختصار العملية الضخمة لإعادة هيكل النظام التي كانت السياسات التعليمية القومية للهند تصورتها. كما من الاهمية بمكان ان نذكر أن الحكومات المتعاقبة في المركز و الولايات كانت قادرة لدرجة كبيرة على وضع النظام التعليمي المخطط بالدقة و المعقد للغاية موضع التنفيذ. و من هنا فإن الإخفاقات الهائلة لهذا النظام

ينبغي أن ينظر إليها في سياق الكفاءات الحقيقية العظيمة، و بخاصة في مجال الموارد البشرية، التي قد أوجدها هذا النظام.

السياسات القومية حول التعليم و الأبحاث

رؤى التقدم:

إن أول إيماءة مهمة، على إثر إقرار الدستور، للحكومة المركزية فيما يخص تنسيق قطاع التعليم بأسره للبلاد، قد جاءت متمثلة في تشريع قانون لجنة المساعدات الجامعية (University Grants Commission) في عام ١٩٥٦، و الذي أدى إلى إنشاء لجنة المساعدات الجامعية المستقلة كهيئة رئيسية لكافة النظام الجامعي. إن جميع الجامعات الهندية تنشأ في ذاتها بصفتها مؤسسات مستقلة تماما و ذلك تحت قوانينها البرلمانية الخاصة للجامعات المركزية و قوانين مجالس التشريع الاقليمية للجامعات الإقليمية. و حيث أن الكليات كلها في الهند يجب انتسابها إلى الجامعات، فإنه ليست أقسام الجامعات فحسب بل عدة آلاف من الكليات المنتسبة قد دخلت بجرة قلم في نطاق سلطان لجنة المساعدات الجامعية.

و قد فوض إلى لجنة المساعدات الجامعية واجب تحديد و توزيع المساعدات المركزية على هذا النظام الواسع، إلى جانب إيجاد النظام و التساوي في مستويات التدريس في الجامعات و الكليات، و خلق التماثل في مقاييس الراتب و أوضاع العمل لعشرات الآلاف من أساتذة الجامعات و الكليات الهندية. و إن لجنة المساعدات الجامعية تحت رئاسة سي. دي. ديشموخ، ثم تحت رئاسة دى. سى. كوتاري لمدة طويلة جدا، قد واجه تحدى هذا الواجب الضخم مع شجاعة و حكمة كبيرة، و قد استطاعت أن تنشئ تقليدا للعمل كوسيط مستقل بين الجامعات و الحكومة و بين المركز و الولايات كلتيهما، و ذلك ينسجم تماما مع الروح الحقيقية للدستور الفيدرالي للهند.

و مع قيام لجنة المساعدات الجامعية للجامعات التقليدية ظهرت على المسرح، معا في وقت واحد تقريبا، معاهد و وكالات جديدة للتعليم و الابحاث بدأت عملها خارج نظام لجنة المساعدات الجامعية. و بعض المعاهد الاكثر أهمية من بينها هي المعهد الهندي للتكنولوجيا الذي أنشيء (بدءا من عام ١٩٥٩ و بعد) في مدينة مدراس، و كهراغبور، و كانبور، و بومبايي، و دلهي، نتيجة لتشريع قانون المعاهد الهندية للتكنولوجيا في عام ١٩٥٦. و إن قرار سياسة العلوم (عام ١٩٥٨) قد لخص الواجب الأساسي للمعاهد الهندية للتكنولوجيا و المعاهد الأخرى الخاصة بمجال التعليم التقني "في تشجيع و تطوير و تعزيز الأبحاث العلمية في مظاهرها كلها - التجريبية و التطبيقية و التعليمية - و في ضمان التزويد الكافي لعلماء الابحاث ذوي الجودة العليا، و في تشجيع البرامج الهادفة إلى تربية الموظفين العلميين و التقنيين، و في تلبية احتياجات البلاد في مجالات العلوم و التعليم و الزراعة و الصناعة و الدفاع".

و إلى جانب المعاهد الهندية للتكنولوجيا، ظهرت هناك أنواع أخرى من المعاهد ذات التعليم و الأبحاث التخصصي خارج نظام لجنة المساعدات الجامعية، و التي من جانبها جعلت قطاع التعليم العالي في الهند هيكلا أكثر غنى و تطورا مما يمكن أن يجده الإنسان في اية دولة أخرى من دول العالم الثالث. و بعض هذه المعاهد هي الجامعات الزراعية و معاهد الأبحاث و التعليم الطبي مثل معهد العلوم الطبية لعموم الهند و تشكيلة كاملة للمختبرات القومية التي قام بإنشائها مجلس الأبحاث الصناعية و العلمية.

و مع تعيين لجنة التعليم (٦٦ - ١٩٦٤) تحت رئاسة كوثاري، اتحدت رؤيته عن علاقة تكافلية بين النظام التعليمي ككل و بين التنمية القومية مع رؤية جي. بي. نايك، و هو الآخر كان معلما هنديا عظيما في ذلك الزمان، و كان عضوا

و سكرتيرا للّجنة. و هنا ننقل من القرار الشهير لحكومة الهند الذي قام بتحديد نطاق الصلاحيات الرئيسية للّجنة:

"... إن التعليم، و بخاصة تعليم الْعلوم و التكنولوجيا، من اقوى وسائل التحول الاجتماعي و التقدم الاقتصادي ... و إن جهود خلق نظام اجتماعي جديد قائم على الحرية و المساواة و العدالة لا تنجح إلّا إذا أحدث تغيير اساسي في النظام التعليمي التقليدي في مضمونه و نطاقه كليهما.

و قدم تقرير لجنة التعليم (٦٦ ـ ١٩٦٤) في يونيو لعام ١٩٦٦. و اتخذت حكومة الهند نتيجة له قرارا شاملا حول السياسة القومية للتعليم في عام ١٩٦٨. إن جميع البيانات المتعاقبة حول السياسة التعليمية القومية قد جعلت التقرير المعروف الآن للجنة التعليم (٦٦ ـ ١٩٦٤) مرجعا أساسيا لها.

الاسلوب الطويل المدى:

و طوال الخمسين سنة الماضية، و بوجه خاص منذ إقرار دستور الهند في عام ١٩٥٠، كان من اللازم أن تتفق سياسات الهند القومية بأسرها مع الحدود التي كان تم تعيينها لإطار عمل الحكومة، و الذي كان تم تصميمه أن يبقى فيدرالي الطبع بصورة مدققة في "جميع الأوضاع العادية تقريبا غير أن القوة الدافعة للحكومة، خلال العقود الثلاثة الاولى بعد الاستقلال على الاقل، و في كل مجال تقريبا، باستثناء أمر أو أمرين جديرين بالذكر في كل ولاية، كانت المبادرات السياسية للحكومة المركزية المدعومة بصورة خاصة، عن طريق مباشر أو غير مباشر، بالاحتياطي الهائل للقوة المالية للمركز. و فيما يخص القطاع التعليمي، فإن الدستور الهندي قد قام بتقسيم المسئوليات الإدارية و التشريعية بين السلطة المركزية و الولايات، حيث أن التعليم، و التعليم المدرسي بوجه خاص، قد جعل من موضوع الولايات على وجه التحديد، مع

إعطاء السلطة المركزية حقا لاعتماد تشريع في البرلمان في مجالات خاصة. و مهما يكن الامر، إن السلطة المركزية عن طريق التمويل المركزي المباشر للجامعات و المعاهد الاخرى في قطاع التعليم (سواء بالتوافق مع الحكومات الإقليمية او عن طريق آخر) قد استطاعت ان تتمتع بالهيمنة بصورة دائمة.

كما كانت هناك فقرة خاصة في الدستور اعطت السلطة المركزية مسئولية "تعاون و تحديد المستويات في معاهد التعليم العالي و الابحاث و المعاهد العلمية و التقنية"، مع أنه ينبغي أن يضاف إليه أن هذه المسئولية لم تود حق تأديتها دائما بصورة صارمة أو مؤثرة من قبل الوكالات أو الوزارات المركزية المختصة (مثل لجنة المساعدات الجامعية، و المجلس الهندى للأبحاث الطبية، و المجلس الهندي للأبحاث الزراعية و ما شابهه) التي طالما انشات لهذا الغرض نفسه عن طريق تشريعات عديدة للبرلمان.

و بالإضافة إلى قدرة السلطة المركزية على استخدام سلطته المالية، و من ثم على ممارسة سيطرة مؤثرة على المواضيع التي تندرج عمليا في قائمة الولايات، إن وضع السلطة المركزية في قطاع التعليم بوجه خاص لم يزل مهيمنا دائما، و حتى على مستوى وضع السياسة. و هكذا، و لعل على نحو متناقض إلى حدما إذا أخذ المرء هدف الهيكل الفيدرالي الاساسي للدستور الهندي بعين الاعتبار، فإن سياسات التعليم القومية للهند (مثل البرامج الخمسية الهندية بالذات) قد بدأت دائما في المركز. إن الآباء المؤسسين قد كانوا تخيلوا بعض المؤسسات، مثل مجلس التنمية القومية التي تقوم بتمثيل الحكومات المركزية و الاقليمية كلتيهما على أعلى مستوياتهما السياسية، لتكون منتدى مناسبا، حيث يمكن ان ينظر في قرارات السياسة المومية، و بوجه خاص تلك التي تخص موضوعات الولايات. و لكن في الواقع إن الموضوعات مثل التعليم ايضا و الذي يعتبر بصورة عامة تقريباً من

الاختصاصات الطبيعية للولايات و الحكومات المحلية، قد قامت الحكومة المركزية بوضع السياسات القومية حولها، و قدمتها إلى البرلمان بعد تشاور قليل مع الولايات (و حتى قبل ذلك في بعض الأحيان).

و طوال العشرين سنة الماضية التي كثيراما تحدي خلالها الروح الكُلّية للنظام السياسي الهندي بصورة ناجحة على المستوى السياسي، فإن الهيمنة المركزية في صياغة التعليم السياسي لم تزل مع ذلك قوية. و من العجب أن الهيمنة استمرت بصرف النظر عن الحزب أو مجموعة الأحزاب التي ملكت أعنة الحكم في المركز غير أن الحجم الاكبر للمصاريف العامة على التعليم دائما جاء من ميزانية الولايات (انظر مصادر الميزانية للتعليم ٥٢ ـ ١٩٥١ حتى ٩٤ ـ ١٩٩٣، وزارة تنمية الموارد البشرية، حكومة الهند، عام ١٩٩٥).

و إن هيمنة السلطة المركزية في مجال التعليم قد صارت أكثر مباشرة في عام ١٩٧٦ (خلال مدة سير حالة الطوارئ) و ذلك من خلال التعديل الثاني و الاربعين للدستور الهندي، الذي جعل التعليم من لائحة الموضوعات المشتركة التي ينبغي معالجتها من قبل المركز و الولايات كلتيهما. غير أنه في الفترة الأكثر حداثة في عام ١٩٩٣ حدث هناك تحول في الاتجاه الاخر، حين تم تمديد الهيكل الفيدرالي للنظام السياسي الهندي مزيدا عن طريق التعديلين الثالث و الرابع و السبعين للدستور الهندي، المشار إليه فعلا قبل، و الذي أدرج التعليم المدرسي كموضوع على قائمة الحكومات القروية و البلدية المحلية أيضا.

و نتيجة لتعديلات عام ١٩٩٣، تعود الآن مسئولية توفير وسائل التعليم المدرسي على الحكومات القائمة على المستويات الثلاثة ـ المركزي و الإقليمي و المحلي. و فوق ذلك، إن المستوى المحلي للحكومة نفسه ينبغي أن يكون هيكلا ثلاثي الطبقات، حيث تكون القرية قاعدة، و مجموعة من القرى (أو بلاك واحد) تشكل الطبقة الوسطى، في حين تكون المديرية في القمة.

و قد سمى الهيكل الثلاثي الطبقات أو الحكومة الذاتية المحلية باسم "بانشايتي راج" (Panchayti Raj) . و قد كان بانشايت "حكومة قروية قديمة" و فعالة للهند، و هي المؤسسة التي أثنى عليها غاندي ثناء وافرا، و كان يحب أن تنشئها الهند الحديثة من جديد بمجدها العتيق الكامل. و مما لا يمكن إنكاره أن فشل الهند فشلا تاما في مجال تجهيز المبادئ التوجيهية لسياسة الدولة (المادة الـ ٤٥ للدستور، انظر باسو، ١٩٩٦) للعمل، و التي تأمر بتوفير وسائل التعليم المجاني الإجباري للأطفال ببكرة أبيهم، يرجع سببه بصورة رئيسية إلى عدم قدرتها على تنشيط الجهد المشترك الجماعي على مستوى القرية - و هو المستوى الذي كان يعتبره غاندي نفسه دائما مهما جدا، و حتى لمحض بقاء النظام السياسي الهندي. و مهما يكن الأمر، إن ما يلاحظ المرء هو أنه بينما إن انتقال السلطة السياسية بواسطة التعديلين الـ ٧٣ و الـ ٧٤ يقدم بصورة حاسمة فكرة الدور المتزايد لمؤسسات السلطة القروية (بانشايت) بالمقارنة مع الحكومات الإقليمية، فان هذا هو الآخر لا يتضمن على سبيل اللزوم أي تغيير مهم في الدور الإجمالي للحكومة المركزية في قطاع التعليم.

و بغض النظر عن مسألة تحقيق طموحات الدستور الفيدرالي، يمكن أن تقدم قضيتان أخريان بصورة منطقية فيما يخص صياغة سياسات التعليم القومية للهند طوال الخمسين سنة الماضية. أولا: إن السياسات أخفقت في كثير من الأحيان على الأخص، لأنها تعودت أن تنظر في المشاكل من بعد، آخذة بالاعتبار وجهة نظر السلطة المركزية (أو الإقليمية في أغلب الأحوال)، بينما كان ينبغي أن ينظر في الموضوع من وجهة النظر المحلية. و إن خطأ تبني وجهة نظر من بعد تعقدت عادة مرة أخرى باتخاذ نموذج القطاع العام في حقل التعليم، و الذي ألحّ على إعطاء المعاهد و الوكالات التي أنشأتها الحكومة دورا بارزا في نظام التعليم، بدءا من التعليم الابتدائي حتى التعليم الجامعي.

و ثانيا: و هو ما يمكن أن يكون نتيجة، إن الاهداف الواسعة النطاق التي وضعها تصريح السياسة القومية للبلاد كانت إما غير ذات صلة جزئيا مع المتطلبات المحلية العديدة أو كانت غير قابلة للحصول بصورة واضحة، حيث إنها وضعت بدون النظر إلى قدرات الموارد البشرية المحلية التي مهمة جدا. و من هنا إن الأسلوب المتسم بالمركزية للسياسة التعليمية لم يزل بصورة عامة غير مرضي في جميع مراحل التعليم، و أما للتعليم الابتدائي فقد كان كارثة في بعض الاحيان. فلا عجب إذن، أن نتائج سياسة التعليم القومية التي تم صياغتها في المركز، لم تزل مختلفة اختلافا واسعا فى مختلف ولايات الهند.

ولايات مختلفة و تاثيرات متباينة:

و يجد المرء انه بالنسبة لـ ١٦ ولاية من ولايات الهند على الأقل، و هي تغطي معاً نحو ٩٧ في المائة من إجْمالي التعداد السكاني للبلاد، (إحصائيات الهند لعام ١٩٩١) يوجد هناك انقسام واضح بين الولايات ذات اداء جيد و بين تلك التي لها أداء غير جيد حسب مؤشرات المكاسب التعليمية.

ففي المجموعة الأولى (مجموعة الف) تندرج عشر ولايات، و هي ولاية آسام، و غجرات، و هاريانا، و هيماتشال براديش، و كارناتكا، و كيرالا، و مهاراشترا، و البنجاب، و تاميل نادو، و البنغال الغربية. إن ولايتي هاريانا و هيماتشال برابيش دخلتا لاحقا في هذه المجموعة، حيث اداءهما في الماضي إما كان ضئيلا أو متقلبا من حين إلى حين. و هذه الولايات العشر معاً تحتوي على أكثر من ٤٥ في المائة بقليل من التعداد السكاني الهندي. و فيما يخص ولاية هيماتشال الصغيرة، فإن معدل تقدمها الحالي رائع، كما اكتشف في مسح لاحق أجراه دريز (DREZE)، لدرجة أنها قد تحتل مكانتها سريعا في أعلى قائمة المجموعة بعد ولاية كيرالا بالذات، التي لم تزل الممثلة النجمة فى

القطاع الاجتماعي للهند، و بوجه خاص في حقل محو الامية، و التعليم الابتدائي و الرعاية الصحية الأولية. و أما مجموعة ب فقد توجد فيها ست ولايات، و أداؤها دون الحد المتوسط بصورة مستمرة، و هي ولايات آندهرا براديش، و بيهار، و مادهيا براديش، و أوريسه، و راجستان، و الولاية الأكثر عمرانا اترا براديش. و إن هذه الولايات الست تحوي أكثر من نصف التعداد السكاني الهندي (٥١,٣٠ في المائة).

إن دراسة سابقة لوضع التباين التعليمي في الهند أجرته ماجومدار (في عام ١٩٩٣) قد كانت لاحظت أن ١٤ ولاية كبيرة للهند قد اندرجت بصورة واضحة في إحدى هاتين المجموعتين من وجهة نظر المكاسب التعليمية المستمرة عبر فترة الثلاثين سنة الماضية ٩١ - ١٩٦١. إن أداء ولاية هاريانا الحالية و التقدم المذهل لولاية هيماتشال براديش لم يؤخذ في تلك الدراسة. و بما أن الاربعة عشر ولاية التي كانت عولجت في الدراسة الماضية، هي الاخرى كانت تحوى أكثر من ٩٤ في المائة من إجمالي التعداد السكاني الهندي، فإنه يكون من الممتع أن نوضح باختصار النتائج التالية للدراسة:

فقد وجد انه إذا كان المعيار المعتمد عبارة عن الأداء المستمر إما نظراً إلى (أ) المعدل الإجمالي لمحو أمية الرجال، أو للاشخاص (رجالاً و نساءً معاً) أو (ب) حجم التسجيل الإجمالي للطلاب في المدارس، إذن فإن مجموعة الولايات الثمان (مجموعة ألف) تميزت بالأداء المستمر الذي كان أفضل من معدل أداء عموم الهند، و كذلك وجدت مجموعة الست ولايات (مجموعة ب) قائمة بالأداء الأسوأ بصورة مستمرة، طوال فترة الثلاثين سنة كلها من ١٩٦١ إلى ١٩٩١. و لكن لم يلاحظ هناك مثل هذا الانقسام الواضح إذا كان المعيار المعتمد عبارة عن (ج) حجم محو الامية بين النساء فحسب، أو (د) نسبة تسجيل البنات فحسب من بين الأطفال الذاهبين إلى المدرسة.

إن ما تكشف عنه هذه الدراسة بصورة واضحة هو أنه إذا أخذت مكاسب الرجال في الاعتبار، فإن التقدم الافضل للولايات من مجموعة الف يكون واضحا جليا، و لكن لا يكون كذلك على الإطلاق إذا نظر المرء في حالة النساء. فإن النساء، بالمقارنة مع الرجال، في حالة سيئة في كل مكان على السواء تقريبا في الهند في مجال المكسب التعليمي باستثناء ولاية كيرالا. و من المصادفة أن هذه بالذات كانت النتيجة الرئيسية فيما يخص بعض مؤشرات القطاع الاجتماعي الأخرى للرفاهية، مثل فرص الوصول إلى الخدمات الصحية.

و هناك حقيقة مهمة لا تنال العناية عادة في هذه الدراسات المجرية على مستوى الولايات، و قد أخذت تجذب اهتمام المحللين على نحو متزايد، فيجب أن تذكر هنا. و هي: كما أن أرقام عموم الهند لا تزودنا بمعلومات كافية حول المنجزات التعليمية النسبية في الولايات، فإن الأرقام الاقليمية بالذات لا تزال متسمة بالمركزية إلى حد بعيد. فعلى سبيل المثال، إن ولاية آسام تنتمي إلى مجموعة الولايات الثمان ذات أداء حسن، و لكن مع ذلك إن مستوى محو الأمية و وضع التعليم الابتدائي في بعض مناطقها القبائلية لا يزال ضئيلا جدا، و هي الحقيقة التي بقيت مهملة على مستوى الولاية.

و كثيرا ما يفضل المرء أن يقدّم تفسيرا سياسيا و اقتصاديا متميزا بالوضوح و البساطة للتاثير المتباين لسياسات التعليم القومية على مختلف الولايات و المناطق، و ذلك على ضوء اتجاهات و ميول الحزب السياسي الحاكم في الولاية. و لكن دراسة عميقة للمفارقات داخل ولاية واحدة و بين الرجال و النساء تنم عن أن التفسير الحقيقي للمفارقة قد يكون أكثر تعقيدا. فإنه من الممكن أن اي حزب سياسي يحمل طابعا خاصا للايديولوجية الاجتماعية و السياسية و الاقتصادية و حكم على ولاية خاصة، عسى الا يكون أحد العوامل

الحاسمة الكبيرة. فمن المعلوم أن حزب المؤتمر ملكت أعنة الحكم في المركز و في أغلب الولايات الكبيرة للهند لمدة ثلاثة عقود تقريبا بعد الاستقلال. و إن التوجه الأيديولوجي لهذا الحزب و الخصائص الشخصية لقادته الأقوياء، و بالأخص جواهر لال نهرو و انديرا غاندي، يشير إلى أن الحكومة تحت سيطرتهم كانت تؤيد حقا جرعات ضخمة للاستثمار العام في قطاع التعليم على جميع المستويات.

و الواقع إن تقرير لجنة التعليم (٦٦ - ١٩٦٤) (حكومة الهند، ١٩٦٦) و موافقة صفوة القادة السياسيين بصورة جماعية تامة تقريبا عليه كدليل لسياسة التعليم القومية للهند، يقترح بوضوح شيئا واحدا لاغير: إن القادة السياسيين الهنود، داخل حزب المؤتمر و خارجه على السواء، الذين كانوا من السابقين بين قادة شعوب العالم الثالث إلى المشاركة في سباق التنمية الاقتصادية السريعة، كانوا قد راهنوا كل ما في وسعهم على زيادة مسار تنمية راس المال البشري. فإنه لم يكن هناك خيار آخر بين يدي دولة ديمقراطية ذات حظ قليل من المواهب الطبيعية.

اللغات الأم للهند:

إن الملحق الثامن لدستور الهند يحتوي على قائمة للغات الهند الأم. و إن عدد اللغات التي ضمت إلى هذا الملحق بلغ ثماني عشرة لغة، و هو يشتمل على اللغة الهندية، و التلغو، و البنجالية، و المراثية، و التاميلية، و الأردوية، و الغجراتية، و الكنادا، و المليالم، و الأورية، و البنجابية و الكشميرية، و السندية، و الآسامية، و الكوكنية، و المانيفورية، و النيبالية، و السنسكيريتية. غير أن إحصائية الهند كانت قد أعدت بصورة رسمية في عام ١٩٦١ قائمة تحوي

١٦٥٢ لغة أم لم تكن معترفا بها كلغات رسمية في اية ولاية أو لم تكن من اللغات القومية المدرجة في الملحق الثامن. و خلال إحصائية عام ١٩٧١ تم تسجيل أكثر من ثلاثة الاف لغة أم من هذا النوع على طلب أرباب البيوت المخبرين، كما يقول مندوب مساعد للأقليات اللغوية في تقريره (حكومة الهند، ١٩٨٥). إن هذا العدد الهائل قد يكون مزورا إلى حدما (انظر براس ١٩٩٤)، فمن الممكن أن حدثت هناك نسبة كبيرة للتعداد المضاعف، حيث أن أرباب البيوت كانوا قد تركوا أحرارا لأن يسموا لغاتهم الأم كما شاءوا. و في كثير من الأحيان قد سميت لغة أم واحدة باسم آخر. و فوق ذلك إن عددا كبيرا من اللغات الأم المصرحة بها لم يوجد لها إلّا حفنة قليلة من الناطقين. على كل إن العدد كان ضئيلا جدا في الغالبية الواسعة للحالات. و حتى مع ذلك إن عددْ اللغات الأم التي ينطق بكل واحد منها ما لا يقل عن نصف مليون شخص مثلا لا يزال كبيرا في الهند حتى اليوم.

إن إحصائية عام ١٩٧١ ايضا كانت قد أعدت قائمة لثلاث و ثلاثين لغة هندية كانت كل منها آنذاك اللغة الأم لأكثر من مليون شخص. و إن أسماء هذه اللغات كلها معروفة تماما لدى أغلبية المثقفين الهنود، و إن آدابها الثرية المتنوعة تشكل مقومات هامة لبنية الحضارة الهندية الحديثة. و لكن نصف هذه اللغات تقريبا لا تحظى بالاعتراف الرسمي بكونها في عداد اللغات القومية للهند.

إن القائمة الاكثر احتراما للغات الهندية هي في الواقع ما يتضمنها الملحق الثامن لدستور الهند. إن تواجد لغة هندية في الملحق الثامن هو في ذاته يشكل قدرا مهما للنجاح لتلك اللغة، و يتمتع الناطقون بها في الأغلب باحترام كبير، فإنهم يستطيعون ان يطالبوا بحماية السلطة المركزية بصفتهم جالية حضارية مستقلة. و إذا اتفق أن كانت تلك اللغة لغة الأقلية في أي من

الـولايـات أو فـي الـبـلاد كـكـل، فـإن الـنـاطقون بها سيجدون حقا من الأسهل أن يطالبوا لأنفسهم بحماية الحقوق التعليمية و الحضارية الأساسية التي تضمنها المادة الثلاثون في الجزء الثالث للدستور الهندي. (انظر باسو، عام ١٩٩٦).

تـتـواجـد فـي الآونـة الـراهنة ١٨ لغة في الملحق الثامن. و يشير عديد من الـخـبـراء إلـى أن الـهـنـدية من بين هذه اللغات ليست لغة واحدة. إنها يمكن أن تـوصـف بـصورة أفضل بكونها في الواقع مجموعة ٤٦ لغة مرتبطة لشمال الهند، حيث كلها تستخدم رسم خط الهندية. و إن عددا من هذه اللغات (مثل بوجفوري، و شـاتـيـسـجـري، و مـاجـادي، و مـيـثـيـلـي، و ماروراي، و راجـسـتـانـي، و جـاروالـي و بـاهـاري، و كـومـونـي، و لامـاني/ لامبادي لها آداب ثرية من نتاجها بـالـذات. إن الـلـغـات الـعـشـر الـمـذكـورة أعـلاه كلها كانت متضمنة في قائمة إحـصـائـيـة عـام ١٩٧١ للثلاث و الثلاثين لغة الأكثر شهرة بين لغات الهند المشار إلـيـهـا فـيـمـا سبق (انظر براس، عام ١٩٩٤، جدول ٥،١) و إن جميع اللغات الست و الأربـعـين قـد ضـمـنت في الهندية التي هي اللغة الرسمية للهند بالإضافة إلى الـلـغـة الانـجـلـيـزيـة التي تتمتع بدرجة لغة رسمية مساعدة، مضافا إلى كونها وسيلة التعليم البديلة في عدة ولايات هندية.

و هـنـاك عـدد كـبـيـر من الـلـغات الهندية أيضا، و عدة منها لغات قبائلية و لـيـست لهجات محضة، و هي لم تجد مكانا في الملحق الثامن، و هي قد تكون أو لا تـكـون بـين الـلـغـات الـثـلاث و الـثـلاثـين الأكثر رواجا و شهرة التي ذكرتها إحصائية عام ١٩٧١م. و مع ذلك وجب الاعتراف بهذه اللغات بصفتها لغات رسمية فـي ولايـات عـدة، و ذلـك بـنـاء عـلـى انـتـشـارهـا في الاستعمال المحلي. (انظر مـاجـومـدار، عـام ١٩٩٦، لـلـقـائمة الموسعة للغات القبائلية المعترف بها كلغات رسمية في ولاياتها المختصة).

و في حزام قبائلي يمتد على مناطق في ولايتي بيهار و البنغال الغربية على سبيل المثال، يعيش أبناء قبيلة سانتال (Santhal) الذين ينطقون باللغة السانتالية (عدد الناطقين بها: ٣,٧ مليون نسمة وفق إحصائية عام ١٩٧١، و هي قد أدرجت في قائمة اللغات الثلاث و الثلاثين الأكثر رواجا في عام ١٩٧١، و لكن لم تذكر في الملحق الثامن). و يعيش أبناء قبيلة سانتال في أصقاع أخرى من الهند أيضا، و لكن يعيش أغلبيتهم بصورة رئيسية في هذا الحزام. و في الأعوام الراهنة قد أصبح المطالبة بالتعليم بواسطة اللغة السانتالية أحد النقاط المستجمعة لحركة أبناء السانتال، الذين يناضلون لأجل إنشاء ولاية أو منطقة جهاركاند (Jharkhand) المنفردة المستقلة. و من الملاحظ أن اللغة السانتالية قد تم الاعتراف بها منذ عدة أعوام كإحدى وسائل التعليم بصورة رسمية في ولاية بيهار و البنغال الغربية (حيث غالبية السكان تنطق باللغة الهندية و البنجالية على الترتيب، و هما لغتان متضمنتان في الملحق الثامن).

و الحق أن في بعض الولايات الصغرى، و كلها واقعة في شرق الهند، لا يستخدم الناس في محادثاتهم أيا من اللغات المدرجة في الملحق الثامن التي ذكرها الدستور أصلا، كما لا تلقى اعترافا كلغات رسمية للولاية. و هذه الولايات هي اروناتشال برادیش، و مانيفور، و ميزورام، و ناجا لاند، و سيكيم، حيث بالإضافة إلى الانجليزية توجد عدة لغات محلية في كل ولاية و هي لغات رسمية أيضا. و إن التعليم الأساسي للأطفال في هذه الأنحاء من البلاد سوف يكون غيرقابل للتصور إلّا عن طريق إحدى هذه اللغات.

إن سخافة تبني وجهة نظر متسمة بالمركزية في قضية اللغة في ولايات شرق الهند هذه قد صارت خفيفة قليلا في الآونة الراهنة، و ذلك عن طريق التعديل الحادي و السبعين للدستور (حكومة الهند، عام ١٩٩٢ ب) الذي أدرج اللغة

النيبالية في الملحق الثامن (بعد احتجاج طويل للنيباليين المرقبين) و الأقل اختلافاً منها اللغة المانيفورية. و اللغة الهندية الأخرى التي وجدت طريقها إلى الملحق الثامن عن طريق التعديل الحادي و السبعين هي اللغة الكوكنية لغرب الهند.

و من الواضح جدا أن المتطلبات الأساسية للتعليم على مستوى الأطفال هي اللغة إلى حد كبير، و من هنا يمكن معالجتها على المستوى المحلي فحسب في البلد الذي توجد به عدة عشرات من اللغات الأم على الأقل (أو شبه اللغات المحلية إذا تم الاعتراف بها). إن هذا الفهم للقضايا الاساسية للتعليم الهندي يوفر إحدى الحجج القوية لجعل اتخاذ قرارات الاستثمار الحكومي في مجال التعليم غيرمركزي و نقل السلطة السياسية التي تعمل وراء مثل هذه القرارات إلى الحكومات المحلية القروية و بلديات المدن في الهند. و إن التعديلين الـ ٧٣ و الـ ٧٤ قد وفرا فرص مثل هذا النقل جزئيا، و هو لا يزال يتوقف على الحكومة المركزية و مجالس التشريع الإقليمية التي تعود عليهما مسئولية اتخاذ قرار إلى أي مدى يمكن نقل السلطة إلى الحكومات الذاتية القروية (بانشايت راج).

و إحدى العوامل الأساسية المؤدية إلى التباين الواسع في المكاسب التعليمية بين الولايات و المناطق الهندية هي، بدون شك، إهمال اللغة الأم الاصلية كوسيلة للتعليم في المرحلة الابتدائية. إن التوكيد الزائد على المركزية و الابتعاد الناتج عنه لجميع أعمال صياغة القرار المهمة في قطاع التعليم قد يكون سبب هذا الإهمال إلى حد كبير. و إنما هي المبادرة المحلية الهامة التي طالما كانت غير متواجدة في صياغة و تنفيذ السياسة التعليمية في الهند ما بعد الاستقلال. و يبدو أن رؤية غاندي عن سلطة القرية (جرام سواراج) لم تلق إجلالا كبيرا من قبل الساسة الهنود إلاّ على نحو روتيني فحسب، و لم تكن

مقبولة كاقتراح عملي حتى لدى أولئك الذين كانوا يدعون أنهم ورثة أيديولوجيته سواء داخل حزب المؤتمر أو خارجه.

و إن هذه هي الشكية العامة حول فعالية المبادرة المحلية التي أخرت عملية الإبانة النهائية لهيكل الهند الفيدرالي حتى وقوع التعديلين الـ٧٣ و الـ٧٤ في الدستور في عام ١٩٩٢. و إن هذا الشك العام في قدرة السلطة الذاتية المحلية على إيجاد القوة الدافعة المطلوبة لتوسيع مجال التعليم الابتدائي و محو الأمية في البلاد قد يكون السبب، بصورة جزئية، في موت مجالس تشريع السلطة القروية التي تم إنشاؤها على نحو روتيني في عدة ولايات إبان حكومة حزب المؤتمر في الأعوام الأولى للاستقلال. و إن الشكية الحضرية قد تكون عاملا يحول دون إحداث الطبقة الثالثة للحكومة على مستوى القرية و المديرية في ولايات مختلفة. و مضافا إلى ذلك، إن نموذج الاقتصاد القيادي و نموذج قطاع حكومي مهيمن في التعليم، قد لقي كلاهما قبولا لدى جميع وجهات النظر السياسية في البلاد. و من هنا لم تتهيا فرصة لإبعاد الأشياء المنافية للعقل التي توجد في نظام تعليمي أجنبي بصورة طبيعية عن طريق عمل جماهيري محلي و منظم.

الوعد الذي لم ينجز: التعليم للجميع:

و فيما يلي أذكر بصورة إجمالية كيف ان هدف الهند لتوفير التعليم الإجباري المجاني لأطفالها لم يتكلل بالنجاح بعد، و ذلك بالرغم من المساعي المستديمة الواسعة النطاق عبر هذه العقود كلها. و من الممكن أن يقدم المرء ذلك مثالا للأسلوب الواسع النطاق في سياسة الهند التعليمية القومية و إخفاقها العام. و قد بدأ ذلك كله مع بيان المبادئ التوجيهية لسياسة الدولة المتواجدة في المادة الخامسة و الأربعين لدستور الهند التي تقول: "و يجب على

الدولة أن تسعى، خلال مدة عشر سنوات من تنفيذ هذا الدستور، لتوفير التعليم الإجباري المجاني لجميع الأطفال حتى يبلغوا الاربع عشرة سنة من أعمارهم". و قد قامت المادة الثانية عشرة للدستور بتعريف كلمة "الدولة" أنها تتضمن الحكومة و برلمان الهند و حكومة و مجالس تشريع كل الولايات و جميع السلطات المحلية و ما غيرها التي تتواجد داخل حدود الهند أو تحت سيطرة حكومة الهند (باسو، ١٩٩٦).

إن المبادئ التوجيهية لسياسة الدولة، كما تعرف الدوائر الخبيرة بصورة عامة، تنقصها القوة الإلزامية ـ على عكس الحقوق الأساسية تماما، و من هنا لا يمكن أن تنظر فيها المحاكم. غير أن اتجاها جديدا قد ظهر، مع تقدم الديمقراطية الدستورية في الهند، على شكل تدخلات من قبل المحاكم العالية، الامر الذي قد ادهش عدة مراقبين، و يمكن أن يضطر العلماء لإعمال الفكر مرة اخرى. و سوف نورد بيانا وجيزا لهذه الظاهرة الهامة بعد قليل.

و في عام ١٩٤٩، حين كان الدستور الهندي في مرحلة الوضع بعد، قد كان قادة جميع الأحزاب السياسية تقريبا الذين اشتركوا في المجلس التأسيسي أعربوا عن رؤيتهم أن وضع ترتيبات لتوفير التعليم الابتدائي الإجباري المجاني لجميع أطفال الهند يجب الا يتجاوز مدة عشر سنوات. و على ذلك تم تحديد الموعد المحدد عام ١٩٦٠.

و لكن في الواقع، كما كان من المتوقع، لقد جاء عام ١٩٦٠ و ارتحل، و لم تحقق الهند إلاّ تقدما يسيرا نحو هدفها. و لكن التفاؤل الزائد، بدلا من أن تحُدّ منه هذه الخيبة، تعدى عمليا حتى إلى تلك الدوائر التي كان فيها أناس يجب أن يعلموا بصورة افضل. فعلى سبيل المثال، إن لجنة التعليم (٦٥ ـ ١٩٦٤) اعلنت

وجهة نظرها حول هذا الموضوع بالكلمات التالية: "يجب أن تكون جميع مناطق البلاد قادرة على توفير الخمسة أعوام من التعليم المؤثر الأفضل لجميع الأطفال بحلول عام ٥٦ ـ ١٩٧٥، و السبعة أعوام لهذا النوع من التعليم بحلول عام ٨٦ ـ ١٩٨٥ (حكومة الهند، ١٩٦٦)

إن تقديرات لجنة التعليم كانت تعتمد على الآمال الكبيرة لاغير. فمثلا قليلا ما كان هناك أي دليل لفهم أبعاد الكوابح الاقتصادية. كما لم ينظر في الاقتصاديات السهلة للتعليم الإجباري المجاني و في تكاليف فرصة التحول عن الطفل الأجير، و في الحسابات المتعلقة الاخرى، مع أن كل شخص كان يشعر أن التكاليف الإجمالية قد تكون هائلة. إن واجب جذب الأطفال بأسرهم إلى المدارس في بلد مترامي الأطراف و متنوع الخصائص مثل الهند يتطلب براعة، و لم يتم رسم طريقته حتى الآن. و يجب على المرء أن يتذكر أيضا أن معظم هذا الواجب يجب القيام به لا في المركز، بل في عدة مستويات دنيا للحكومة و في مستوى الحكومات الذاتية القروية.

و الواقع أنه قلما يبعث على العجب أن تقدير لجنة التعليم للجدول الزمني للامتثال بالمادة الخامسة و الأربعين كان بعيدا عن الهدف إلى حد مربك. و في عام ١٩٨٦، حين انقضى الموعد المحدد، لم يعرف البرلمان إلّا تقدما قليلا. و لكن، استنادا إلى الطبيعة غير القابلة للمقاضاة للمبادئ التوجيهية لسياسة الدولة في الغالب، لم تزل تصدر التوكيدات تترى من الحكومة المركزية بهذا المفهوم بصورة عامة: أن "الدولة" لا تزال تسعى لتحقيق الهدف الذي حددته المادة الخامسة و الأربعون للدستور، و من هنا إنها تستمر في أداء التزامها الدستوري.

حينما عرضت سياسة التعليم القومية لعام ١٩٨٦ و برنامج العمل المصاحب لها (حكومة الهند ١٩٨٦ أيه و ١٩٨٦ بي) على الشعب، فكان من الواضح

ان صانعي القرار الهنود لم يتعظوا من الماضي بعد: فالفجوة الواسعة بين الطموحات الكبيرة و الحقائق الأرضية الاقتصادية الصغيرة مازالت مستمرة في تصريحات و خطط السياسة الخاصة بالتعليم كما في المجالات الاخرى. فاعلنت سياسة التعليم القومية لعام ١٩٨٦، و لكن مع مصداقية اقل مما كانت تتمتع بها التصريحات السابقة، ان الأطفال بأسرهم سوف يوفر لهم التعليم الإجباري المجاني حتى بلوغهم الأربعة عشر عاما بحلول عام ١٩٩٥!

فلا عجب إذا ان نسخة معدلة لسياسة التعليم القومية لعام ١٩٨٦ (حكومة الهند ١٩٩٢) مع برنامج عمل معدل مصاحب لها قدمت إلى البرلمان في عام ١٩٩٢. و لكن مما يبعث على العجب هو ان الحكومة المركزية، بالرغم من تجاربها الماضية المتكررة فيما يخص تحديد الموعد المحدد غير المحتمل، و عدت بتحقيق التزامات جريئة في الصياغة الجديدة لسياسة التعليم القومية في عام ١٩٩٢، و هي لا تزال قائمة حتى اليوم: سوف يوفر التعليم الإجباري المجاني ذو النوعية المرضية لجميع الأطفال حتى بلوغهم الأربعة عشر عاما، و ذلك قبل استهلال القرن الحادي و العشرين بواسطة تدشين حملة قومية.

إن الموعد المحدد المعدل لا يعطى الحكومات المركزية و الإقليمية (و تضاف إليهما الحكومات المحلية على مستوى المديريات "بانشايت راج" التي خولت لها السلطة حديثا، و من المرجو أن الحكومات الإقليمية تسمح لها أن تحيا حياتها بصورة فعالة و مؤثرة) حتى مدة عامين إثنين من تاريخ طبع هذا المقال. و يقدر بعض الخبراء أن حسب المعدل الحالي للتقدم (ظنا منهم في الواقع أيضا ان معظم العوائق الإدارية و الانتخابية المتوقعة التي تواجهها حكومة "بانشايت راج" الحديثة ستزال على نحو سريع جدا) إن التعليم الابتدائي للجميع حتى بلوغهم الأربعة عشر عاما كما تتضمنه المادة الخامسة و الاربعون

سيتحقق في الأربعين سنة في ولاية بيهار، و في نحو العشرين سنة في ولاية اترابراديش و في الفترة الأقل منهما إلى حدما في أغلب الولايات الأخرى. و أما ما يتعلق بكون التعليم "ذا نوعية مرضية" فإنه لا يزال حلما بعيدا في معظم اقطار البلاد لفترة الخمسين سنة القادمة. و تبدو هذه تنبؤات متشائمة إلى حدما، و إن جميع التنبؤات عن المستقبل البعيد تواجه مشاكل منهجية بالإضافة إلى مشاكل المصداقية. و لكنها مع ذلك أقل خطورة بالنسبة إلى مشاكل المصداقية التي خلقتها الوعود غير المحتملة التي جعلتها الحكومة بصورة متكررة بين يدي برلمان البلاد و شعبها.

الفعالية القضائية و المادة الـ ٤٥:

إن الاتجاه الجديد لتفسير الحقوق الاساسية و المبادئ التوجيهية لسياسة الدولة في الدستور المشار إليها قبل قد تلقى استحسانا و نظرت إليه بعض الدوائر بنظرة ملؤها الخوف. و قد دعي ذلك بصورة عامة بالفعالية القضائية، و هذا اسم مناسب جدا لما نرمي إليه.

لأول مرة إن المحاكم العالية في الهند (و هي تشتمل على المحكمة العليا الهندية و المحاكم العالية للولايات) تبدي ارتيابها في الحكمة التقلِيدية التي اعتمدت عليها السلطات المختلفة للدولة، و هي تتضمن تلك التي (مثل اللجنة الانتخابية الهائلة) بدورها تتمتع بحماية وافية في الدستور الهندي. و يمكن أن ينقل قراران هامان أصدرتهما المحكَمة العليا الهندية (١٩٩٢ ـ ١٩٩٣) من بين الأمثلة السابقة للفعالية القضائية في الهند. و قد تم إصدار هذين القرارين بشأن عريضتين ذات الاهتمام الجماهيري، فالعريضة الأولى كانت رفعت ضد ولاية كارناتكا في عام ١٩٩٢، و الثانية و هي العريضة الأكثر شهرة، فقد كانت قضية مقاضاة عامة للمدعو اوني كرشنان ضد ولاية آندهرا براديش

في عام ١٩٩٣، حيث أصدرت فيها هيئة قضائية متكونة من ٥ أعضاء قرارا، بموافقة ٣ قضاة و اختلاف الإثنين، أن حق التعليم حق مبني مستمد، و هي ينبع مباشرة من حق المواطنين الأساسي للحياة. فقد قالت المحكمة في قرارها إن المبادئ التوجيهية المتضمنة في المادة الخامسة و الأربعين تحدد بصورة أساسية جوانب ذلك الحق، مُعَيّنة واجب الدولة تجاه السعي إلى توفير التعليم الإجباري المجاني لكل طفل حتى بلوغه الاربعة عشر عاما. و إن المحكمة، لأول مرة، رفضت دعوى الدولة أنه يمكنها أن تدعي بصورة تلقائية أنها تسعى بأمانة لامتثال المبدأ التوجيهي حينما وجد أنها أخفقت فيه لمدة اربعين سنة. و نتيجة لقرار المحكمة العليا الهندية في قضية عام ١٩٩٣، تم تعيين لجنة لوزراء التعليم لجميع الولايات، تحت رئاسة موهي رام سايكيا وزير الدولة المركزي في وزارة تنمية الموارد البشرية آنذاك، و ذلك للنظر في إما أنه يجب أن يضمن حق التعليم في الدستور كشاهد على جدية الدولة في امتثال المبدأ التوجيهي المتضمن في المادة الخامسة و الأربعين. و بناء على التوصية الإيجابية الإجماعية للجنة سايكيا، قدم مشروع قانون (التعديل الـ ٨٣) لعام ١٩٩٧ في مجلس الشيوخ في ٢٨/ يوليو لعام ١٩٩٧. و قد كان التعديل يهدف إلى أن يجعل حق التعليم حتى الأربعة عشر عاما حقا أساسيا صالحا لأن تنظر فيه المحكمة بصورة واضحة لكل مواطن هندي. و كما أوصت به اللجنة، إن مجموعة للخبراء تقوم حاليا بدراسة التكاليف التي تعود على الحكومة من جراء اتخاذ إجراءات متعاقبة لازمة بعد صدور قرار المحكمة العليا الهندية.

ما عسى يمكن أن ينجز غير ذلك:

إن نظرة على مدى المصاريف الحكومية على التعليم في ولاية ما لا تدع شخصا يشك في أن نصيب التعليم في ميزانية الولاية أو في الناتج المحلي للولاية لا ينم عن شيء بخصوص الفعالية أو العدالة أو النجاح الواضح في الأداء

التعليمي. و يمكن أن يفحص أن تباين نصيب الإنفاق الحكومي عبر سنوات عديدة إما من الناتج المحلي للولاية أو من مخصصات الميزانية ليست له أية علاقة، أيا ما كانت، بتقسيم *الولايات إلى الولايات التي لها أداء* جيد (فئة أيه) و *التي لها* أداء رديئ (فئة بي).

إن ولاية بيهار من فئة بي، و هي إحدى الولايات التي إنجازها أكثر ردائة في سباق تعميم التعليم الابتدائي، لم تزل أكثر الولايات إنفاقا على التعليم الابتدائي عبر عدة سنوات، و ذلك بالنظر إلى نصيب مخصصات الميزانية. فإنها قد أنفقت ١٥,٠ في المائة من ميزانيتها على هذه المادة وحدها بالمقابلة إلى الولاية المحلية كيرالا التي انفقت ١٤,٥ في المائة في عام ٨٦ - ١٩٨٥. و للمرة الاخرى في عام ٩١ - ١٩٩٠ أنفقت ولاية بيهار ١٥,٤ من الميزانية على التعليم الابتدائي، و كانت في رأس القائمة. و بينما أنفقت ولاية كيرالا ١٢,٨ في المائة فحسب. و احتلت ولاية آسام في عام ٩١ - ١٩٩٠ المرتبة الثانية (من فئة أيه). حيث كانت اسام أنفقت ١٣,٠ في المائة، و من المثير للعجب أن ولاية أترابراديش (إحدى ولايات فئة بي) كانت في الواقع أنفقت المقدار نفسه تقريبا (١٢,٩ في المائة) من ميزانية الولاية على التعليم الابتدائي! و علما للمقارنة، إن معدلات عموم الهند لمصاريف الولايات الإقليمية على التعليم الابتدائي من ميزانياتها الخاصة بالذات بلغت ٥,١ في المائة و ١٠,٢ في المائة في عام ٨٦ - ١٩٨٥ و عام ٩١ - ١٩٩٥ على الترتيب.

و يمكن أن يفحص أيضا أن هذه لم تكن أمثلة منعزلة. إن جميع بيانات الميزانية الخاصة بمصاريف الولايات على التعليم تقريبا خلال عام ٨٦ - ١٩٨٥ و ٩١ - ١٩٩٠ من شأنها أن تكشف أنه لا يمكن إقامة علاقة متبادلة معقولة بين المصاريف الحكومية على التعليم و التباين التعليمي بين الولايات أو حتى أن يشك فيها على هذا الأساس.

و إذا نظر المرء للبحث عن رد لهذا السؤال: لماذا نصيب بعض الولايات (فئة بي) هو الاخفاق في مجال المكاسب التعليمية، بينما نصيب الأخرى النجاح إلى حدما، على نحو مستمر عبر عدة عقود؟ فعادة يرجع ذلك إلى الحقيقة أن مختلف أنواع الأحزاب السياسية أو جبهاتها الائتلافية حكمت الولايات الهندية لمدة أعوام عديدة. و هذا نفسه ما يقوله المعلقون السياسيون و الاقتصاديون كل يوم لشرح الاختلاف في النتائج التعليمية في الولايات المختلفة، و التي فيما يظن تتبع نفس السياسات القومية. إن هذا الإيضاح يبدو بسيطا، و جديرا بالتصديق أيضا إذا لم ينظر المرء في الحقائق بصورة حذرة جدا، فإن كل ولاية تقوم باستثمار قليل أو كثير من موارد ميزانيتها و ذلك وفق أرجحياتها السياسية و دوافعها نفسها، و هي تتكشف عن نتائج مختلفة. مهما يكن الأمر، يجب الا ينخدع الإنسان بهذا الإيضاح البسيط بدون احتراس مناسب، و ذلك لان موارد ميزانية الولاية، ما لم يتم فحصها بصورة واعية جدا، ليست متنوعة جدا فيما يخص مواد المصاريف العيارية. أيا ما كان الحزب الذي ملك اعنة الحكم و في أي مكان.

و بالإضافة إلى ذلك، لعله ينبغي الا يهتم المرء كثيرا بالخلافات السياسية و الايدولوجية المصرحة بها (أو المزعومة) بين الأحزاب السياسية الهندية. إن كلاً من شركاء الائتلاف الحالي (ساعة كتابة هذا المقال) لحزب بهارتيا جانتا الذي يملك ازمة الامور في المركز أو الجبهة المتحدة التي تتضمن أيضا الاحزاب اليسارية أو حتى حزب المؤتمر كما يتواجد في الأيام الراهنة، يبدو متضمنا مكونات متنوعة جدا ذات ايديولوجية سياسية مختلفة. و لكن فيما يخص سياساتها التعليمية فإن كل حزب، كما هو الآن، يترنم عمليا بنغمة واحدة، و هي نغمة العملية السياسية. فمن المعلوم - على سبيل المثال - أن

الأحزاب اليسارية معارضة "لخصخصة" التعليم على خلاف حزب بهارتيا جانتا. و لكن مهما تكن خلافاتهما الايديولوجية، إن كلا منهما راض لدرجة معقولة بتواجد نظام تعليمي مخلوط، و متشابه تقريبا، أينما اتفق أن يكونا في السلطة سواء في بنغال الغربية، أو مهاراشترا، أو في المركز نفسه.

هل تقدم ولاية كيرالا حلا؟

إن جين دريز و امارتياسين (Jean Dreze & Amartya Sen) في عمليهما الحالي (٩٦ ـ ١٩٩٥) قد أثارا عدة قضايا مهمة حول التنمية الهندية، و هي يمكن أن توفر إشارات عديدة للرد على سؤالنا: لماذا تقوم بعض الولايات الهندية بأداء أحسن بالمقارنة إلى الأخرى في حقل التعليم؟ و حينما ينظر المرء في ارقام عموم الهند فيبرز هناك سؤال إضافي واضح: هل يمكن أن تتلقى الولايات الهندية الأخرى، أو البلاد ككل، درسا من ولاية كيرالا الصغيرة التي لم يزل اداءها رائعا لدرجة كبيرة.

فيشعر دريز و سين أنه لا يمكن حل القضية الهندية إلاّ إذا نظرنا إلى بيئتنا بحثا عن بعض المقارنات الدولية. إن الدول التي تعرف الآن بـ"النمور الآسيوية" مثل جنوب كوريا، و هونغ كونغ، و سنغا فورة، و تايلندة، كانت بدأت حياتها بصورة متواضعة جدا قبل بروزها إلى الوجود. فمنذ عهد قريب (في الخمسينات بالتحديد) إنها كانت على قدم سواء، في قليل أو كثير، مع الهند فيما يخص ناتجها القومي الإجمالي لكل فرد. فكيف استطاعت أن تفوق الهند بصورة شاملة في سباق التنمية الاقتصادية؟ فهل تحقق ذلك للسبب الوحيد و هو أنها كانت تتمتع باقتصاديات السوق الأكثر انفتاحا؟ إن الكاتبين لم يجدا دليلا يؤيد هذه الرؤية العامة.

لقد كشفا في دراساتهما ان التكافؤ الأولي للهند بهذه الدول الاسوية الأخرى كانت نظرا إلى وجود مقارنة معها في ناتجها القومي الإجمالي لكل فرد فحسب. و إن هذه الصورة المتساوية تغيرت بصورة سريعة إذا نظر المرء إلى المؤشرات الأخرى للتنمية البشرية. فإن هذه الدول كلها كانت تتواجد فيها معدلات عالية لتعلم الكبار، حينما بدأت السلوك - مثلا - على طرق تنميتها السريعة، بالنسبة ما تتواجد الآن في الهند. و إن معدلات موت الأطفال في هذه الدول كلها، إذا أخذنا مثالا آخر، كانت أخفض بكثير من الهند.

إن دريز و سين يشيران إلى النقطة القوية و هي أن ولاية كيرالا الصغيرة لم تحرز قصب السبق على كل ولاية هندية في هذه المجالات و في غيرها من المؤشرات الاجتماعية للتنمية البشرية فحسب، بل إنها حقا تنتمي إلى نفس طبقة النمور الآسيوية! و أما ما يتعلق بالسؤال عما إذا كان من الممكن أن تكون ولاية كيرالا الصغيرة أنموذجا لدولة كبيرة مثل الهند، أو حتى للولايات الهندية الأخرى، التي بعضها أكبر منها بكثير حجما، فإن دريز و سين قد قدما جوابا باعثا على العجب: إن ولاية كيرالا (عدد تعدادها السكاني في عام ١٩٩١: ٢٩ مليون نسمة) ينبغي ألا ينظر إليها كولاية صغيرة على الإطلاق، مع أنها أصغر من بعض الولايات الهندية الكبيرة مثل ولاية أترابراديش (١٤٠ مليون نسمة) أو ولاية بيهار (٨٦ مليون نسمة) و ولاية مهاراشترا (٧٩ مليون نسمة) و ولاية بنغال الغربية (٦٨ مليون نسمة) أو ولاية مادهيا براديش (٦٦ مليون نسمة). إن ولاية كيرالا في الواقع أكبر من معظم الدول في العالم! فإذا كان على الهند أن تتلقى الدرس من سريلانكا و هونغ كونغ و سنغافورة، كما يوصي به اقتصاديو التنمية، فإنه يجب أيضا أن يتذكر المرء أن كلا من هذه الدول أصغر من ولاية كيرالا. و كما يقول دريز و سين "حتى إن جنوب كوريا التي تستقطب جزءا كبيرا

من الاهتمام في الأدب التنموي، و ترى في أغلب الأحيان كانموذج للتنمية، كان تعدادها السكاني في بداية الستينات (حينما بدأ تحولها السريع) مثل الذي يتواجد في ولاية كيرالا الآن.

ولكن ما هي الدروس المستفادة من قصة نجاح كيرالا في القطاع الاجتماعي بصورة عامة و في حقل التعليم الابتدائي بصورة خاصة؟ إن دريز و سين يقترحان فيما يبدو أن أمرين إثنين حققا لولاية كيرالا النجاح الكبير بصورة جوهرية. الأول: إن كيرالا اتبعت بصورة مستمرة (تحت حكم حزب المؤتمر و الأنظمة الشيوعية كليهما) السياسة التعليمية الصائبة التي وضعت كل توكيد على التعليم الابتدائي (و بالتالي توكيدا قليلا على التعليم العالي). و الثاني: إن العمل الجماهيري لدعم أرجحيات القطاع الاجتماعي (التعليم الابتدائي و الصحة الأولية) قد مثل أداة إضافية للخيار الاجتماعي، الأمر الذي قد تم ممارسته بعزيمة و قوة، من قبل الأحزاب السياسية في الحكومة و خارجها.

إن هذا، على كل، يشكل جزءا من القصة فحسب. ففي المقام الأول إن التفضيل الواضح للتعليم الابتدائي في ولاية كيرالا، و الذي يتم تقديره بالمبلغ الذي تخصص له الحكومة في ميزانية الولاية فحسب، لم يكن دائما أقوى منه بصورة بارزة للولايات الهندية المختلفة، كما لوحظ ذلك فملا ذي قبل. و ثانيا إن العمل الجماهيري في عدة ولايات هندية أخرى يعني في أكثر الأحيان عمل الشارع، و من الصعب أن يدلى برأى حول كونه مستحسنا في أية حالة خاصة إلا في حال استعادة الأحداث الماضية و التأمل فيها.

و من سوء الحظ أن دراسات دريز و سين (٩٦ ـ ١٩٩٥) لم تستطع أن تحل لغز ولاية كيرالا، و الذي هو سبب مرض عدم تنمية الهند (أعنى الولايات

الهندية). *و إن هذا اللغز الذي لايزال بدون حل إنما يتضمن جزئين بصورة* أساسية: أما الجزء الأول فهو يتعلق بالفعالية الداخلية للقطاع التعليمي لولاية كيرالا نفسه: كيف أن ولاية كانت تظن انها ستجني المنافع الحقيقية لنظام فعال جدا للتعليم الابتدائي و ممتد على الخمسين سنة على الاقل، لا يتواجد فيها قطاع التعليم العالي الذي يمكن ان يقارن بصورة مرضية مع ولايات الهند الاخرى، التي هي أقل حظا من التعليم في المستويات الدنيا؟ أ لم تكن قاعدة أوسع لدرجة مهمة للسكان المتزودين بمعرفة القراءة و الكتابة و المتوجهين إلى المدارس، لتزيد إمكانية ظهور نتائج افضل لدرجة كبيرة في المراحل العليا، حينما يتم مقارنتها مع الولايات الأخرى؟ إن اي مقارنة لنتائج كليات كيرالا و جامعاتها مع تلك التي تتواجد في ولايات الفئة اية الاخرى تتكشف عن أن قانون الإمكانية لا يبدو عاملا في صالح كيرالا لدرجة مهمة. فلماذا لم يحدث هكذا؟

إن الجزء الآخر من هذا اللغز أكثر تعقيدا و باعثا على الحيرة من الأول من وجهة نظر اقتصاديات التنمية. فما هو السبب أن ولاية كيرالا التي لها سجل ضخم حقا في مجال مؤشرات القطاع الاجتماعي، مثل معدلات معرفة القراءة و الكتابة للكبار، و العمر المتوقع، و معدلات ولادة و موت الأطفال - التي تجعلها في مصاف النمور الآسيوية حقا - لماذا قد ضعف اداؤها في حقل التنمية الاقتصادية البسيطة، و حتى بالمقارنة مع بعض الولايات الهندية الأخرى؟ فإحدى الإيضاحات المعقولة هي أنه وضع التوكيد الزائد خطأ في كيرالا على تفضيل التعليم الابتدائي على التعليم العالي، و على التعليم العلمي و التقني بوجه خاص. إن عملا جماهيرا مطلعا في هذه المجالات أيضا، و بوجه خاص العمل الجماهيري غير الشعبي الذي يؤثر الجودة على الكمية في

إنتاج أشخاص ذوي الكفاءة العالية، عسى أن كان وضع كيرالا على طريق التصنيع السريع برفقة النمور الآسيوية الأخرى. و أنا مقتنع شخصيا أن هذا هو *الدرس الإضافي في السياسة التعليمية الذي يمكن أن يستوحى من قصة كيرالا المعقدة، و هي ليست لولاية كيرالا وحدها، بل لجميع الولايات الهندية* ذات الطموحات التقنية، و لكننا قد أخفقنا بصورة مستمرة في تلقي هذا الدرس.

الدولة و التعليم العالي:

و من المعلوم جيدا أنه من المستحيل حقا إدارة نظام جامعي من الطراز الأول في أي بقعة من العالم على أساس الرسوم الدراسية التي توخذ من الطلبة وحدها. إن التعليم العالي الجيد إنما هو تعليم يقوم على الإعانات المالية لدرجة واسعة، و لكن لا يعني ذلك أن جميع الإعانات المالية يجب أن تحصل من مخصصات الميزانية أو من الموارد المالية العامة الأخرى. إن تقرير لجنة بونايا (Punnayya) (١٩٩٣) حول تمويل لجنة المساعدات الجامعية (UGC) لمعاهد التعليم العالي في الهند قد أشار (بونايا عام ١٩٩٣، جدول III.I)، نقلا عن بيانات O E C D، إلى أنه لا يمكن، حتى في الدول الصناعية المتقدمة، تمويل معاهد التعليم العالي فعلا من الرسوم الطلابية. و قد أضاف التقرير قائلا: "يوجد هناك انطباع عام أن قطاع التعليم العالي في بعض الدول يتمتع بالاكتفاء الذاتي، و ذلك يعنى أنه ليس مضطرا للاعتماد على الدعم الحكومي أو على مساندة من خارج الوكالات الممولة. و لكن هذا لا يصدقه الواقع المعاش كما يسود اليوم في مختلف أصقاع العالم.

مهما يكن الأمر، إن لجنة بونايا لم تكن وافقت على الرؤية الشعبية أن معاهد التعليم العالي في الهند لا تحتاج لأن تحاول الخروج من النظام الحالي الذي تقوم فيه الدولة بإدارتها و تقديم الإعانات إليها. بل على الخلاف إنها ناشدت

.

ممارسة الاستقلال المالي الحقيقي للجامعات بالمفهوم التالي: ألا تعتمد على الإعانات الحكومية، و *أن تحاول رصد الموارد المالية بصورة مستقلة من* المصادر الخاصة، و أن تبحث في الاحتياجات الأبحاثية لصناعات القطاع الخاص بدون تشجيع الحكومة، و أن تبيع للصناعات - و الحكومات - نتائج الأبحاث التي تحتاجان إليها، و أن تعلمهما بصورة منظمة طرق استغلال مثل هذه *النتائج ما تجلب لها المنافع*: و هذه هي الوظائف المناسبة لجميع *الجامعات* و معاهد الأبحاث و *التعليم العالي الراقية* أبنما كانت، و بوجه خاص في دولة نامية مثل الهند. و لكن إنجازا لكل ذلك إنهما تحتاجان الدعم الحكومي و الجماهيري كليهما.

إن تقرير لجنة بونايا كان قد ساندته في هذا الجانب لجنة سوامي ناثان أيضا، التي كان تم تشكيلها من قبل لجنة عموم الهند للتعليم التقني، و ذلك للنظر في قضية رصد الموارد المالية للتعليم التقني في البلاد (سوامي ناثان عام ١٩٩٤).

أي نوع لمعرفة القراءة و الكتابة في القرن الحادي و العشرين؟

و في نهاية المطاف، إنه من اللازم أن نتذكر اليوم أنه يجب تقوية معرفة القراءة و الكتابة التقليدية بما يدعى الآن بمحو الأمية الحاسوبية لكل مواطن مستقبلي، لكي لا يشعر حتى أولئك الذين حصلوا على التعليم الابتدائي فحسب أنفسهم ضائعين، سواء مستهلكين أو منتجين، في القرن الحادي و العشرين. و لكن مرة أخرى ينشأ هناك سؤال: أي نوع لمحو الأمية الحاسوبية يجب أن نحاول تعزيزه، و الذي يخول السلطة للمواطنين أجمعين، فضلا عن بعض منهم فحسب، و ذلك عن طريق إعدادهم للحياة في المجتمع العالي التقنية؟ و الآن بعد الخمسين سنة من الاستقلال، حينما يبدو الشعب الهندي أنه يحشد

رغبة سياسية كافية لتحمل تكاليف محو الأمية للجميع، و ذلك بغض النظر عن مدى هذه التكاليف تقريبا، فإنهم لا شك يتمتعون بحق لمعرفة البدائل التي تقدم لهم.

و للبت فيما يمكن أن يكون أنسب نوع لمحو الأمية الحاسوبية للقرن الحادي و العشرين، ينبغي ألا يكون المرء محمولا على تغيير رأيه لزاما بالجانب الوحيد للتعليم فحسب الذي كان قد شدد عليه Schultz (في عام ١٩٦١) و Becker (في عام ١٩٩٣) - و هو ما يزيد من الفعالية الإنتاجية للإنسان. إن مواطني القرن القادم ربما يكونون مهتمين على السؤاء بتحقيق نوع آخر لمحو الأمية - و هو النوع الذي لا يجعلهم منتجين أكثر فعالية فحسب، و لكن المستهلكين الأكثر فعالية أو المواطنين الأكثر فعالية أيضا. (انظر ماجومدار عام ١٩٩١). فللنوع الأول من الاهتمام (للفعالية الإنتاجية المتزايدة) إنهم في حاجة إلى نوع من محو الأمية يمكنهم على الاستغلال الفعال لحاسوباتهم الشخصية لجلب المنافع في المهنة و التجارة، في البيت و محل العمل كليهما. و أما للنوع الثاني من الاهتمام (للفعالية المتزايدة للمستهلكين) فتمس الحاجة إلى محو الأمية الذي يمكن المواطنين كلهم لان يقضوا حياتهم كاملة في مجتمع عالي التقنية، و ذلك بدون أن يكونوا أغنياء لحد يقدرون على شراء الحاسوبات الشخصية الغالية. إن هذين النوعين لمحو الأمية الحاسوبية يمكن ان يكونا من البدائل في بعض الحالات من وجهة نظر السياسة التعليمية، لانهما قد يتسابقان للحصول على الموارد أو الإعانات المالية المجتمعية نفسها.

اما ما يتعلق بالنوع الاول لمحو الأمية الحاسوبية، فإن عددا قليلا جدا من مواطني دولة نامية يستطيع أن يتبنى ذلك، و بالتالي يستطيعون ان يشتروا

الحاسوبات الشخصية، و يدخلوا في النهاية في عداد صفوة "عمال المعرفة" من العالم. و أما سائر الناس فهم في حاجة إلى ان يوفر لهم النوع الآخر من محو الأمية الحاسوبية حتى يتمكنوا من العيش في عصر التكنولوجيا. و الحق إن تعميم محو الأمية هذا هو ما سوف نحب أن نتكلم عنه. و إذا كانت تكاليف إنشاء نظام تعليمي لأحد النوعين من محو الأمية الحاسوبية باهضة، و تتطلب إعانات مالية حكومية كثيرة، فأي من النوعين تقدم له الإعانات المالية؟

إن النوع الأول من محو الامية الحاسوبية الذي يتطلب تملك الحاسوبات الشخصية سيكون لزاما جدا للفعالية الإنتاجية للاقتصاد، و فيما يتعلق بتنمية الموارد البشرية لإنتاج العمالة العالية الجودة أيضا، كما إنه سيكون مكافئا جدا على المستوى الشخصي. و إن دعواه لنيل الإعانات المالية من المجتمع لذلك الحد سيكون محدودا. اما النوع الآخر لمحو الأمية الذي لا يقوم بصورة أساسية على تملك الحاسوبات الشخصية فإنه يكون أجدر بالتحمل، و يمكن أن يتصور المرء انتشاره عن طريق استخدام الأنظمة الحاسوبية الواسعة المركبة في أمكنة مثل الجامعات و الكليات و المدارس و في محل العمل أيضا. و الحق أن تقديم الإعانات المالية لهذا النوع لمحو أمية المستهلك يكون بصورة واضحة بمثابة الإنفاق على التعليم الإنساني العام، كما عرفها الإنسان على مدى العصور. و إن المجتمع الذي كان قد قدم في الماضي الإعانات المالية للتعليم الإنساني لأسبابه النبيلة الخاصة، قد يرغب في تقديم الإعانات المالية لمحو الأمية الحاسوبية للمواطنين في القرن الحادي و العشرين لهذه الأسباب بالذات.

تعريب: ولي أختر الندوي



اللغـــــات: بلد ثقافات و لغات

بقلم: دي. بي. بتتنايك

عرض للغات الهندية:

الـهـنـد، عـلـى خلاف الدول الأمة الغربية أو دول أفريقيا و أمريكا اللاتينية، بلد متعدد الديانات و الثقافات. و هذه هي التعددية ـ السمة الهندية الغالبة ـ التي تـجـد انـعـكـاسا في وجود ١٦٥٢ لغة و لهجة (حسب الاحصاء السكانـــــيّ عام ١٩٦١م) متولدة عن أربع لغات رئيسية و مكتوبة في عشرة أصناف من الخطوط. و إلـى ذلك كله يمكن أن تضاف كثرة كاثرة من لهجات تستعلمها تجمعات سكانية صـغـيـرة. ثـم و إن هــذه الـتـعـددية لـيـسـت مـقـصـورة عـلـى الـلـغـات، و إنـما البلد مأهــول بـ ٤٦٠٤ طائفة و جماعة، و أتباع ٤٠٠٠ ديانة و عقيدة. و وجود ٤٦٠٠٠ نـوع من الأشـجـار و النبات و ٦٥٠٠٠ نوع من الـحيوانات في ربوع البلاد يكفي دلالـة على أن الظاهرة نفسها تتجلى في التعددية الجينية أيضا. اللغات الأربعة الـتـي تكون بمثابة اللغات الأم بالنسبة للغات الهندية، هي الآسترية و الدرافيدية و الـهندية ـ الآرية و الصينية ـ التبيتية هذه اللغات تكتب بعشرة أنظمة خطية: الـخط العربي ـ الفارسي و الـخط الناجري و الجورموكي و الكوجراتي و الأورياوي و الـخـط الأسـامـي ـ الـبـنـغالي ـ المانيبوري، و خط التيلجو ـ الكنرا ـ و التاملي و المليالي و التبيتي و الروماني و مجموعة أخرى من الـخطوط.

بادئ ذي بدء يكون من الأنسب أن نقف وقفة، و نمعن في التضاربات بين الاتجاهات أحادية الثقافة - أحادية اللغة، و الاتجاهات متعددة الثقافات - متعددة اللغات. الاتجاه متعدد اللغات يتجلى في مثل تاملي بمعنى أن العالم كله قريتي و الأناس جميعهم اخوتي أو في مثل سانسكرتي يقول إن العالم كله أسرتي. أما الاتجاه الغربي أحادي اللغة فإنه ينعكس في البيان التالي: المرء الذي يجد موطنه حلوا، يكون مبتدئا و في نعومة أظفاره، و الشخص الذي يكون كل بلد عنده بمثابة وطنه الأم، يكون قد بلغ مرحلة النضج و القوة، إلا أن الشخص يكون متصفا بالكمال عندما ينظر إلى العالم كله كأنه ارض غربة - هوجو من سانت فيكتور (هذا المقتبس أورده فريد دالماير في "وراء الاستشراق" - مطبة نيويورك، ١٩٩٦).

و لنا أن ننظر إلى الظاهرة نفسها بطريق لخر. الاتجاه أحادى اللغة و المسيطر في الغرب يعتبر ظاهرة اللغة الواحدة عرفاً مألوفاً و متبعاً، و ظاهرة اللغتين، مقبولة، و ظاهرة ثلاث أو أربع لغات قابلة للاحتمال. و تعدد اللغات وراء ذلك يكون في الرؤية الغربية سفاهة. و الاتجاه متعدد اللغات يكون نقيض الاتجاه الغربي. إنه يرى تعدد اللغات أنه عرف مألوف، و تقييد اختيار لغة الاستعمال بقيود معقولة يكون في اطار هذا الاتجاه أمرا مقبولا، و فرض الحد عند ثلاث لغات: شيء قابل للاحتمال، لكن الحصر في لغة واحدة، يكون تفاهة. لمدة طويلة باتت الثنائية اللغوية تعتبر في الغرب نزعة سلبية، إلاّ أن التغيير في التوجهات البحوثية أكسب تلك الظاهرة صفة الإيجابية، بيد أن الغرب لا يزال يتبنى تحفظات ازاء التعددية اللغوية و اعتبارها ظاهرة عادية و طبيعية، و العلماء في الغرب يتمسكون بهذه النظرية منذ عام ١٩٩١م حيث تم نشر "الثنائية اللغوية و التعددية الثقافية" من جامعة هارفارد، غير مائلين إلى قبول الفكرة القائلة بان التعددية اللغوية تحمل معها التعددية الثقافية.

على مدى قرون متعاقبة بات الرحالة من الفارس و اليونان و الصين و الشرق الأوسط وغيرها من أكناف العالم يسمون منطقتنا بتسمية "الهند". و العلماء من امثال أم. بي. ايميناو و سي. بي. ماسيكا قالوا إن الهند منطقة لغة واحدة. أطوار العمل التي تؤدي إلى تكوّن منطقة ذات لغة واحدة و كيان اجتماعي - لغوي و معنوي تكون كثيرة، و لإيضاحها يكفي ايراد مثالين ... أولا: ظهور وسيط بسيط للايصال من خليط لغات و لهجات منوعة، و تكوّن مجتمع من مقومات غير متجانسة لغة و أصلا. الأبحاث اللغوية في أول الأمر تبنت أنه من المستحيل أن تتولد لغة جديدة من خليط لغات بدون وجود لغة أو لغتين من القارة الأوروبية في ذلك الخليط. إلاّ أن هناك ثلاث لغات هندية - الناجامية، السادني، الديسيا - من هذه الفصيلة، قد نشأت عن عمل الاتصال بين اللغات الهندية بالإصالة. الثاني من أطوار هذا العمل يأتي متمثلا في لغتين او ثلاث لغات معتمدة على قواعد نحوية مماثلة. و في هذا الخصوص يقول جون غومبيرز في (Kupwar Study) إن ثلاث لغات هندية - المراثية و الأردية و الكنرا - منتمية إلى عائلتين لغويتين (الهندية - الآرية و الدرافيدية) في استعمالاتها تقاسم اساسا نحويا واحدا. العمل الثالث يكون عمل امتصاص. إذا كانت اللغة - أية لغة - لغة أقلية أو قليلة الشيوع فإنها بصفة تدريجية تفقد هويتها و تغدو مخلوعة عن استقلاليتها و تمتصها لغة اخرى شائعة في المنطقة. و الحقيقة أنه خلال الخمسين سنة الأخيرة قد تنوعت اللغات بسرعة و تعددت أسوة بتكاثر و تعدد أنواع النباتات و الحيوانات.

الآداب الهندية:

يعود تاريخ الآداب الهندية إلى خمسة الاف سنة. هذه الآداب في طورها البدائي كانت ترسم على أوراق النخيل بروس أقلام حديدية. و كانت النصوص تكتب بالحبر على قشور شجر البتولا. و بمجئ المطابع في منتصف القرن

الثامن عشر جاءت الثورة في عالم المعارف و المعلومات، في كسبها و تخزينها و تدوينها.

و التقليد الهندي لنقل المعارف شفويا من جيل إلى جيل فإن له تاريخا قديما قدم وصول الانسان إلى أرض شبه القارة. و اليوم فإن التجمعات البشرية المتفرعة و القاطنة في ربوع البلاد، جميعها تمتلك مخزونا عامرا للتقاليد الفولكلورية. ثم و إن هذه التقاليد ليست مقصورة على الاغاني أو الروايات الشعبية، و إنما تعم الأقوال الشعبية و التواريخ الشفهية أيضا. و التركيزات خلال النصف الثاني من القرن العشرين قد انتقلت من جمع الآداب الشعبية إلى تحليلها و ترجمتها، الأمر الذي ساعد في المزيد من اكتشاف الآداب بالوانها الاقليمية و الوطنية و الكونية و جعل الهند منطقة فولكلورية موحدة.

باستثناء الآداب التاملية و السانسكرتية التي لها تاريخ أقدم نسبيا، فان الغالبية من الآداب الهندية الأخرى اكتسبت هوياتها المستقلة على مدى ٨٠٠ سنة أو ما يقاربها. و عن مرحلتها الانتقالية من العصور المتوسطة إلى العصر الحديث فإنها تعود على وجه التقريب إلى منتصف القرن التاسع عشر. ثم و إن هذه الآداب نمت و ازدهرت في فترة الخمسين سنة الأخيرة. و في الفترة ذاتها تطورت ـ بجانب الاداب و صنوف النثر التخنيلية ـ الكتابات الأخرى التي تناولت حقولا منوعة على صلة بالاداب.

في أول الامر جاءت الآداب السانسكرتية توفر نموذجا لتطوير الآداب و اللغات الهندية الأخرى. إلا أنه خلال الخمسين سنة الأخيرة حلت الانكليزية و الآداب الانكليزية محل الآداب السانسكرتية، و في أعقاب بناءها الهويات الذاتية فان الاهتمامات صارت تنصب على قواسمها المشتركة. منذ أربع سنوات تحدثت الاكاديمية الهندية للآداب عن "أدب هندي" مكتوب في عدة لغات و هذه الفكرة تلقت قبولا مديدا.

معلوم عن اللغات أنها تنمو و تتسع من خلال الاستعمالات في جو الابتهاج الذي تعاقب استقلال البلاد و كان من المتصور عامة أن لغات الام ستستعمل استعمالا واسعا في جميع مجالات التعليم و الادارة و المواصلات العامة. إلّا انه بمرور السنين صار استعمال لغة الام كوسيط للتعليم في طور التراجع، و بصورة تدريجية أخذت اللغة الانكليزية تحل محلها. و بعد اعلان كون الانكليزية لغة رسمية مشاركة للبلاد أصبحت اللغات الهندية تستعمل للاغراض الرسمية استعمالا بطيئا، و كالنتيجة فإن اللغة الإنكليزية لم تعد تستخدم فقط كوسيلة إيصال بين الصفوة من الطبقة المتوسطة في كل منطقة، و إنما أصبحت بمثابة لغة رابطة بين الصفوة في مختلف المناطق أيضا. التراجم باللغة الإنكليزية ساعدت في توسيع دائرة القراء، لكنها أسفرت في نفس الوقت عن انخفاض عدد الراغبين في تعلم اللغات من مناطق أخرى.

الهند كمنطقة لغوية:

إن دراسة منطقة لغوية تكون مبدئيا دراسة الجغرافيا اللغوية. هذه الدراسة تكون - بعبارة أخرى - تمديدا لمناهج الجغرافيا اللغوية إلى مشاكل على علاقة بدراسة المناهج المصنفة (Typology) و ذات صلات مع تعريف و تحليل جوانب التقاء اللغات المرتبطة/ غير المرتبطة بعضها مع البعض، و لكن بخصائص داخلية مشتركة. المنطقة اللغوية كهذه عرّفها ايم. بي. ايميناو (M. B.Emeneu) تعرفة كلاسيكية حيث قال: المنطقة اللغوية تضم لغات منتمية إلى أكثر من أسرة لغوية و لكن شاملة سمات مشتركة لا توجد في الآخر من أعضاء لغة واحدة (على الأقل) من نفس الأسرة. (ايمينياو ام. بي. "الهند كمنطقة لغوية")، و يرى ماسيكا أن الهنود الأوروبيين كانوا مجموعة بشرية لم يجمع أفرادها رباط اقليمي إلّا أن المشاركة اللغوية جعلت المنتمين إليها يتشبهون بعضهم بالبعض.

من الضروري ان نلاحظ في هذا الخصوص ان الحواجز الطبيعية في طرق الايصال و المدعومة بحواجز اخرى اجتماعية جعلت من عمل التلاقي غير متعادل. ذلك مع العلم بأن التقاء التجمعات البشرية لغويا يكون أسهل اذا ما توجد ثمة قليل من الحواجز و تتوافر فرص الايصالات و التبادلات الثقافية. و يضع العلماء القوقاز و الساحل الغربي لامريكا الشمالية و جنوب شرق آسيا و أوراسيا و ايثوبيا ضمن مثل هذه المناطق أحيانا على أساس المماثلة الصوتية و أحيانا على أساس التشابهات التركيبية و التشكلية و الأساليب التعبيرية.

تركيب الكلمات يكون من الخصائص المميزة بالنسبة لمنطقة الهند اللغوية. بالرغم من بعض الاستثناءات فان اللغات الهندية عامة تتشعب يسارا.. المفعول يسبق الفعل و النعت ياتي قبل المنعوت. و بهذا الصدد يبين ماسيكا الحدود اللغوية السميكة كيف تفصل الهند عن منطقة جنوب شرق آسيا وراء بورما، و عن العرب و الفارس و افريقيا وراء اثيوبيا.

الافعال التعليلية تكون خصيصة اخرى من الخصائص المميزة للغات الهندية .. الافعال من هذا النوع يشوبها غموض شديد حيث يكون بعضها معرّفاً بتركيبها، و الاخر يعرف بعلامات شكلية. و اللغات الهندية عامة تنطوي على افعال تعليلية من الفصيلة ثانية الذكر.

العطف ميزة أخرى رئيسية من مزايا منطقة جنوب آسيا اللغوية، إنه احيانا يربط جملا متعادلة و أحيانا جملا غير متعادلة، و يعبر تارة من خلال اسم الفاعل و ظروف و تارة من خلال المصدر (أو الفعل الذي لا يكون محدودا بالفاعل). ثم و أن صور الفعل هذه تسمى بتسميات منوعة مثل اسم الفاعل و إسم المفعول، و اسماء الفاعل و المفعول بمعنى الفعل أو بمعنى الإسم،

و أشكال الفعل الظرفية و الكيفية، و المصادر بمعنى الماضي، و الافعال المشاركة، و الأفعال الناقصة. هذه الصور و التسميات هي الأخرى تزيد من الآداب النحوية غموضا. و ماسيكا يفضل "المصادر العاطفة" على غيرها.

ثمة صياغة بسيطة - اسم الفاعل/ المفعول العاطف + الفعل - يكون الفعل المحدود بالفاعل فيها الفعل الرئيسي و إسم الفاعل/ المفعول مقوما ثانويا. هذه الصياغة تختلف عن الصياغة - اسم الفاعل/ المفعول + الفعل - التي يكون فيها اسم الفاعل/ المفعول فعلا رئيسيا، و الفعل المحدد بالفاعل فعلا ثانويا و مصاحبا. ذلك مع العلم بأن التراكيب الموضحة توجد في جميع الأسر اللغوية الأربعة الهندية.

الصياغات المفعولية (اشكال الإسم أو الضمير أو النعت التي تستعمل للدلالة على معنى الإنفعال) ايضا شائعة في كل لغة من الاسر اللغوية الهندية.

لقد نظر العلماء إلى التجانس أو التقارب الذي يؤدي إلى تشكيل منطقة لغوية من المنظور اللغوي ـ الاجتماعي. اللغة الغالبة في منطقة ما لا تكون دائما لغة معطية، أو اللغة الثانوية لغة مستلمة. بهذا الصدد أوضح بي. ك. ك. ردّى في "التقارب التركيبي في لغات المنطقة المتوسطة الهندية (مجلد راما كريشنيا المائة سنوي، سيتا تروست، فيشاكا بتنام، ١٩٩٢) لوضح كيف أصبحت اللغات المونديه - بالرغم من كونها مغلوبة - معطية و اللغات الغالبة - الدرافيدية و اللغات الإندو - آرية - متقبلة و متلقية. دراسته هذه تتناول الكونيات الاقليمية كيف نشأت و ادت بالتالي إلى ظهور الهند كمنطقة لغوية. الناس الذين يقولون بمناطق لغوية فرعية يعرضون انفسهم معرض خطأ اذ الممكن أن يفسر مثل هذا القول بقلب النظام و وضع الاشياء بترتيب معكوس. أما الكونيات الإقليمية فانها - من ناحية أخرى - من شانها أن تفسر بدوائر متداخلة في حالة نمو مطرد، و متناسقة مع ما يعرف بشبكة العلاقات.

العلماء و أعمالهم:

وصلت علوم اللغة الاجتماعية إلى الهند في عام ١٩٥٠ من خلال مؤسسة روكفيلر. قبله وجدت في البلد *الفيلو لوجيا (فلسفة اللغات)*. هناك في جامعة كلكتا دائرة للفيلولوجيا المقارنة رأسها الدكتور اس. ك. شاتورجي الذي جاء مؤلفه "منشأ و نمو اللغة البنغالية" فاتحة لظهور أكثر من عشر دراسات مثل دراسته المذكورة. الدكتور سوكومارسين، أحد أبرز تلاميذ الدكتور شاتورجي، درس علوم اللغة الاجتماعية لمدة أربعين سنة. و لدى وصول هذه العلوم إلى أرض الهند وجد ثمة عدد من العلماء اتت في طليعتهم أسماء اس. أم. كاتريه و ايه. أم. غاتجيه و تي. بي. ميناكشي سوندرام و تي. أن. سريكانتيا و ماريابا بات و سومايا جي و ديريندرا فيرما و بابورام ساكسينا و فيشوناث براساد و في. آى. سوبرامونيوم. و من بين هؤلاء العلماء فان الدكتور كاتريه، عالم اللغة الإندو-آرية، اتخذ من "البانينية" ركيزة لأبحاثه الموسعة، و اهتماماته موجهة في نفس الوقت أيضا إلى المعاجم و علم اللهجات، و إنه بحق يعتبر معمارا لعلوم اللغات الاجتماعية في البلاد. و يليه في القائمة خلفه ايه. أم. غاتجيه الذي نصب اهتمامه على الإندو - آرية و على البراكريتية و الجينية و المعاجم. تي. بي. ميناكشي سوندرام و تي. أن. سريكانتيا و ماريابا بات و سومايا جي جميعهم من كبار اخصائي علوم اللغة الاجتماعية من جنوب الهند، و أنشطتهم العلمية تركزت على اللغة الدرافيدية و الدراسات السانسكرتية، و في خلفية أبحاثهم في الحقول المعينة يمكن القول بأنهم كانوا رواد فلسفة اللغات و الدراسة المقارنة بمعنى الكلمة. و في سهول جنجا الشمالية وجدت هذه الفلسفة اللغوية ركيزة و دعامة في شخصيات بي. آر. ساكسينا و فيشواناث براساد و ديريندرا فيرما. اختصاصهم كلهم كان الفيلولوجيا، إلّا ان مؤخر الذكر - ديريندرا فيرما - تمكن من بناء مكانة لنفسه في علم الأصوات أيضا.

الطائفة الثانية من العلماء الذين شمروا عن السواعد لتنمية علوم اللغة الاجتماعية في البلاد تالفت من في. آى. سوبرامونيام و بى. بى. بانديت و بى. ايتش. كريشنا مورتي و كان سوبرامونيام قد تلقى التدريب في الولايات المتحدة و أعماله الموسعة حول اللغة الدرافيدية تضمنت\إشارات خاصة إلى لغتي التاميل و المليالام. إنه أسس الجامعة التاملية و تولى منصب نائب المستشار فيها، كما قام بتأسيس معهد اللغات الدرافيدية و تنميته. و بي. بي. بانديت، عالم اللغة الكوجراتية، وافاه الأجل في سن مبكر، إلّا انه خلف وراءه أعمالا قيمة و كان رئيس دائرة علوم اللغات الاجتماعية في جامعة دلهي. و للعالم بي. ايتش. كريشنا مورتي مساهمة خاصة في لغة التيلجو و لهجاتها و علومها الاجتماعية.

أما كاتب هذا المقال فإنه يمكن القول بانه همزة وصل بين الطائفة المذكورة من علماء اللغات و الطائفة التي خلفتها. إنه درس اللغة الأورية في جامعة شانتي نيكتان لمدة ١٢ سنة، و تولى رئاسة المعهد الامريكي للغات الهندية لمدة ست سنوات، و بحثه بعنوان "اعادة بناء تاريخي للغات الاورية و البنغالية و الأسامية و الهندية" يتصف بأهمية خاصة فيما يتعلق الأمر بالدراسة اللغوية في الهند. بتتانايك، صاحب هذا المقال، استجاب لدعوة الحكومة الهندية، و عرض تجربته في دراسة اللغات لإنشاء "المعهد المركزي للغات الهندية". و إنه قام ايضا بتأسيس "المجمع الهندي للمعاجم" و عدة مجمعات أخرى. المعهد المركزي للغات الهندية عمل بالتنسيق و التعاون مع الادارات الاقليمية، و ساعدها في صياغة و تنفيذ البرامج و السياسات اللغوية. و من خلال اللغات الرئيسية ساعد هذا المعهد أيضا في اجراء اصلاحات في المقرر الدراسي و اعداد المواد الدراسية و استعمالها في التعليم و الادارة و المواصلات العامة. بالاضافة إلى ذلك فإن المعهد المذكور تولى مهام تحديد

الـفـجـوات و الـفـروق، و نظم برامج التدريب في علوم اللغات الاجتماعية و علوم اللـغـات الـنـفسية و القراءة و التقييم. و ما أن اصبحت الجامعات جاهزة لتولى هـذه الـمـهام، توجه المعهد إلى حقول أخرى جديدة. و في هذه الأطوار جميعها ركز المعهد اهتمامه على التعدد اللغوي و تعليم اللغة الأم.

و فـي الـوقـت نـفـسـه قام المعهد سالف الذكر بإنشاء ستة مراكز اقليمية مـهـامها الرئيسية انحصرت في اللغات تعليما و تعلما. هذه المراكز استخدمت لـتـعـلـيـم أساتذة المدارس الثانوية لغات عدا اللغات الام، كما انها تولت أعمال اعـداد الـكتب الدراسية. في هذه المراكز تستعمل الأشرطة السمعية ـ البصرية مع الكتب، و صنعت داخل أسوارها أفلام لإبراز معالم الثقافة الوطنية.

من بـين الـعـلـمـاء و الـلـغـويين من معاصري بتتانايك كان ايه. بي. كيلكار و أغـاسـتـيـا لـيـنجام و آي. أم خوبشنداني و براج و ياموما كاتشرو و أم. آل. آبتيه و أيـه. ك. رامانوجان الذي تصدى في أعماله للقضايا النظرية و كتب بغزارة في الـلـغـة المراثية. رامانوجان لعب دور رائد في تنمية علم النحو التحويلي ـ العلم الـذي يـتـعـرض لـبناء لغة عبر التحويلات اللغوية على أساس الافتراض بان لكل لـغـة بنية داخلية عميقة و بنية أخرى سطحية. خوبشنداني قضى سنوات عمله فـي عـلـوم الـلـغـات الاجـتـمـاعية خارج البلاد أكثر منها في الهند، بينما حصل كـاتـشـرو و بـراج و يـامـونـا و آبـتـيـه و رامـانـوجـان عـلى المواطنة الامريكية، و جـمـيـعـهـم قـاموا بتقسيم أوقات عملهم بين الهند و الولايات المتحدة. النحو التحويلي كان مجال اختصاص لياموما، بينما ركز براج على الدراسات الانكليزية فـي جـمـيـع أكـنـاف الـعـالـم. و فـي الوقت الذي اتخذ آبتيه من العلوم الانسانية (الانـثـروبـولـوجـيـا) و العلوم اللغوية ركيزة لأبحاثه، عمل رامانوجان على العلوم الـلـغـويـة الاجـتـمـاعـيـة و الـفـولـكـلـور و الدراسات الثقافية، و بوصفه شاعرا و مـتـرجـمـا للشعر من اللغة التاملية و الكنرا فإن قصائده وجدت مكانا في أهم المجموعات الشعرية.

علاوة على المذكورين من العلماء هناك قائمة أخرى للعلماء في سن مبكر نسبيا، و تتضمن أسماء آر. أن. سريفاستوا و بي. جي. ميسرا و سي. جيه. داسواني و بريم سينغ و ك. في. سوببا راو و انجاني سينها و راما كانت اجنيهوتري. و هناك اسماء أخرى بارزة من نفس الجيل اصحابها خلفوا انطباعا ملموسا خاصة في منطقة جنوب الهند، و القائمة تتكون من ايتش. أس. انانثا نارايينا و ك. كروناكران و ك. رانجان و جي. أس . أس. راو و برابود تشاندران ناير و إي. أنناملاي و اسرائيل و بي. آر. ك. ردّى.

سريفاستوا الذي تدرب في كل من روسيا و الولايات المتحدة، له عدة أعمال بارزة في الدراسات اللغوية الهندية، و أوراقه منشورة في ستة مجلدات. طيلة سنوات عمله ظل سريفاستوا يدرس العلوم اللغوية من كافة الجوانب و من خلال جهوده الدائبة استطاع أن يرسم للهند و معارفها اللغوية مكانة في خريطة العالم. و اتخذ بريم سينغ و بي. جي. ميسرا من علوم اللغة التاريخية ساحة لنشاطاتهما الدراسية، و لـ بي. جي. ميسرا دراسة تتناول البناء الداخلي للغة الهندية، و حتى يومنا هذا ليس هناك عمل اخر يساوي هذه الاعمال قيمة و مغزى. و لقد عمل بي. آر. ك. ردّى و كرونا كران على علوم اللغة الاجتماعية، و دراسات ردّي تركزت على اللغات الموندية و الدرافيدية و الإندو - آرية، و نجاما ردّى مدربة في مجال علم الاصوات (الفنلوغيا) أحسن تدريب بين معاصريها في البلاد. و ابحاثها تشمل كلا من الأصوات الملفوظة و الأصوات الألية، و تتطرق إلى الفنلوغيا بأشكالها النظرية و التطبيقية بوجه سواء. أما رنجان و راجا رام فإنهما بالتوالي ركزا على العلوم اللغوية من الناحية النظرية و من الناحية التطبيقية.

هناك في مدينة حيدر آباد معهد مركزي للغة الإنكليزية و اللغات الاجنبية. هذا المعهد اكتسب مرتبة الجامعة، و ك. ايه. جايا شيلان و أمريتا فالي هما

الاثنان من علماء هذا المعهد اللذان انجزا ابحاثا رائعة في مجال التركيب النظري (Theoretical Syntax). براباال داس جوبتا عضو آخر في فريق اللغويين الذين ياتون في طليعة الباحثين في مجال التركيب النظري. و اس. ك. فيرما، مدير المعهد (سابقاً) و نائب المستشار فيه، هو الاخر عالم للغة الانكليزية و اللغة الهندية.

مكانة و دور اللغة الانكليزية:

اللغة الانكليزية تراث للاستعمار. إلّا أن الاناس الذين يدعون لنبذ الانكليزية أو لاستبدالها باللغة الهندية، لا يعرفون شيئا عن حقائق الامور في الهند. في هذا الصدد يقول راما كانت أجنيهوتري: كثير ممن اتخذوا من تعليم اللغة الانكليزية مهنة، و من دراسة علوم اللغات التطبيقية شغلا لهم، يعتبرون "الاخطاء" دليلا على نقص في المعرفة، و يعيدونها إما إلى لغة من اللغات المحلية أو إلى لغة المتعلمين. (عرض لغوي لجنوب آسيا: المجلد:١، يونيو ١٩٩١م). في هذا المقتبس ما يكفى دلالة على اتساع الفجوة بين النظرية و الممارسة.

العلماء في بلدنا ناقشوا موضوع اللغة الانكليزية و دورها و استعمالها كلغة ثانوية مناقشة واسعة. و لعل السبق في اعداد أول بحث: "الانكليزية: اللغة الام" كان لـ جيه. ام. باير. في سياق التعرض للانكليزية كلغة أم بالنسبة للهنود من اب أو ام من الاصل الانكليزي، و كونهم معلمين مثاليين فيما يتعلق الامر بتدريس اللغة الانكليزية، فان الباحثة باير تأخذ ثلاثة أجيال و تبحث طرق استعمالاتها للغة.

هناك مخزون عامر للمواد الأدبية التي تناقش دور اللغة الانكليزية في الهند. و من ضروب من الاراء حيال هذه اللغة مدحا و قدحا تظهر صورة موضوعية يمكن تلخيص جوانبها الهامة على النحو التالي:

ـ كمثل اللغتين الصينية و الهندية الانكليزية أيضا لغة متعددة النوى.

ـ تحتل الانكليزية مكانة لا تتساق مع عدد الناطقين بها و مع أهميتها في الهند.

ـ العلوم و التكنولوجيا من المواد التي تدرس بوسيط اللغة الانكليزية لأن المفروض عامة أن اللغات الهندية لا تصلح أن تكون وسيطا لتدريسها.

ـ اللغة الانكليزية في المرحلة الابتدائية تحدث ابتعادا و نفورا، و تخلق فراغا ثقافيا.

ـ اتخاذ الانكليزية وسيطا للدراسة في المرحلة الابتدائية يسبب في كبح موهبة الابداع و الابتكار.

ـ الانكليزية تشكل عمدة بالنسبة لقطاع صغير من المقاولين، و لعبدتها من الصفوة تكون وسيلة مضمونة للثراء و الرخاء.

ـ بالنسبة للشباب تكون الانكليزية بمثابة فرصة الحياة، و لأجل ذلك فإنها تعد عاملا رئيسيا من العوامل المسئولة عن هجرة الأدمغة.

ـ الانكليزية تسبب في تقسيم المجتمع إلى طبقات و شرائح كمثل طبقة مدنية/ ريفية، و متقدمة/ متخلفة و غنية/ فقيرة الخ...

في خضم مثل هذه المناقشات عامة ننسى أن الانكليزية تكون مصدر قوة إن استعملت مكملة للغات الوطنية و مضيفة إليها، و مصدر ضعف و وهن لو أخذت مكانة لغة عدو. و من البداهة بمكان إن الانكليزية تغدو لغة عدو متى ما تحاول خلسة أن تزحزح اللغات المحلية و تشغل حيزها.

في هذه الأيام تتزايد المطالب بضرورة تعليم اللغة الإنكليزية فور دخول الطفل إلى كنف المدرسة. ذلك و الحال أنه بالقدر الذي يتدرج السلم التعليمي

نزولا، بالقدر نفسه تهبط المستويات التعليمية. و وسط بيئة مدرسية لا فيها معلمون مؤهلون و لا مواد دراسية وافية أو منهج محدد للتدريس يكبر الطفل الدارس و هو لا يجيد لا لغته الأم و لا اللغة الانكليزية.

هناك معهد مركزي للغة الهندية، و معهد مركزي للسانسكرتية، و هيئة مركزية للغة الأردية، و هيئة مركزية للغة السندية. و في الولايات معاهد للغات الاقليمية. و ثمة أيضا أكاديمية مركزيه للآداب و أكاديميات أدبية للولايات. و في بعض المناطق توجد معاهد للغات الأقليات و القبائل، كما توجد هناك هيئة دستورية تدعى "اللجنة للأقليات اللغوية". بيد أن هذه الهيئات و المعاهد انشطتها تتم بدون تنسيق يذكر فيما بينها.

التراث الثقافي لغالبية الهنود اصالة يستمد من اللغة السانسكرتية. و لقد جاء اكتشاف اللغة البانينية يوفر ليس فقط نمونجا للغويين و النحويين في أرجاء العالم، و إنما يكون تعلمها و اتقانها هو الاخر تحديا بالنسبة لهم. و إننا لفي غني عن القول بأننا مازلنا أبعد ما نكون عن ذلك الهدف. لاحظ لين وهايت جونير في مقاله المنشور في مجلة "الاستعراض التاريخي الأمريكي" (١٩٦٠م) إن الفكرة الهندية حول الحركة الدائمة لم تساعد المهندسين الأوروبيين في اضفاء صفة العمومية على فكرة الطاقة الميكانيكية فحسب، و إنما جاءت تحفزهم أيضا على القياس بالتمثيل و الذي خلف تاثيرا كبيرا على النظريات العلمية الغربية. هناك كثرة كاثرة من العلوم التي أنارتها الاداب السانسكرتية، و قائمتها تشمل الفلسمة و الأدب و الهندسة و العلاج و الجراحة و الآثار و الهندسة المعمارية و سياسة الدولة. الصفر و النظام الاعشارى من المبادئ الرياضية التي يعود الفضل في اكتشافها إلى الهنود، و اهميتها القصوى انعكست في تسمية العرب العلوم الرياضية بالهندسة أو الفن الهندي.

التعليم القبلي:

إن فكرة تعليم *القبائل* بوسيط لغاتها القبلية تستحق اهتماما خاصا. هناك لغات قبلية عدد الناطقين بها أكبر من عدد الناطقين باللغة الكشميرية أو اللغة السندية. و بالرغم منه فإنها تستمر غير معترفة بها لاغراض التعليم. ظواهر الركود و الضياع الشائعة بين القبائل في مردها تعاد إلى عدم استعمال اللغات القبلية كصلات مع اللغة المدرسية المسيطرة. الدوائر المعنية نادرا ما تعترف بأن القبائل التي تجد مكانتها في أسفل سلم الفقر و السلم الاجتماعي لا يمكن لها أن تعبر المسافة الشاسعة بينها و بين النخبة أو اللغة التي يطلب من ابناءها أن يتعلموها في المدرسة. فالتعليم - كما قيل عنه - يخلق تفريقا مهنيا بتأثيرات - أولا - على الفروق في الادوار، و على التفاعلات الاجتماعية فيما بعد (أى. بي. ديساى: "تخطيط التعليم في المناطق القبلية" في " التخطيط المدمج للتنمية القبلية". أن. أى. سى. دى. حيدرآباد، ١٩٧٥م).

تحيط القبائل الأسر اللغوية الأربعة جميعها. و كثير من المجموعات الصغيرة التي تنطق بلغات و لهجات منوعة و غيرمكتوبه، تجد التعليم و الايصال على قدر كبير من الصعوبة. إلّا أن المعلمين و المسئولين عن ادارة الشئون التعليمية يجدون - خطأ - في الأسباب الاقتصادية و الاجتماعية مبررا للتخلف في الانجاز. لكن الحقيقة هي أن اللغة تلعب دورا رئيسيا في بقاء الطفل القبلي متخلفا في الانجاز و مصابا بشعور بالنقص. و هذه هي الحقيقة التي لم تقم الدوائر المنكورة بتقديرها حق التقدير.

هناك أناس يثيرون تساؤلات و شكوكا عن امكانية اتخاذ المئات من اللغات القبلية وسيطا للتعليم، إلّا انهم يتناسون أن اللغات القبلية الهامة عددها اقل

من مائة. النداء بضرورة اتخاذ اللغة الأم ـ في حالات القبائل و غير القبائل بوجه سوى ـ وسيلة للتعليم، يهدف إلى تامين توفير فرص لائقة للطفل الطالب و لبناء شخصيته، إذ المعلوم أن اللغة التي ينطق بها الطفل في بيئة منزله اذا ما تكون عرضة للسخرية في المدرسة، فإن ذلك يسبب في خلق شعور بالنقص عنده. و من سوء الحظ انه ليس هناك أحد يهمه ربط لغة الطفل في البيت مع لغته في المدرسة. الآباء لا ثقل لهم لدى المدرسة في شأن اللغة، و المعلمون لا يعرفون لغة الطفل، و إنهم معا غير راغبين في تولى المسئولية عن ربط لغة الطفل مع لغته الدراسية. النظام ثنائي اللغة في الصفوف الابتدائية و الذي من شأنه أن يؤمن التنقل بسهولة من لغة البيت إلى لغة المدرسة، و يمكن الطالب من اتخاذ لغة المدرسة في المرحلة الاعدادية و الثانوية على قدم المساواة مع الآخرين، يكون أفضل نظام للتعليم خاصة في بلد متعدد اللغات مثل الهند.

استعمال اللغة الام لتعليم القبائل شجع على التجربة ثنائية اللغة في المرحلة الابتدائية. هذه التجربة تهدف إلى ربط لغة الطفل مع لغة المدرسة، و ملامحها البارزة هي أن يبدأ الطفل نشاطه الدراسي بقراءة و كتابة لغة البيت، و يتجه تدريجيا نحو تعلم لغة المدرسة نطقا، و منه إلى تعلمها قراءة و كتابة. إنها تركز على تيسير التنقل من المعلوم إلى اللامعلوم، و اعداد الطالب القبلي للانشغال في دراسة الثانوية كأي طفل تكون لغته لغة الغالبية. و أبرز النتائج المترتبة على التجربة المذكورة حتى الآن هي انخفاض نسبة التهرب بين الطلاب القبليين و تزايدهم اقبالا على التعلم و التحسن في أداءهم في تعلم اللغة المدرسية. هذه التجارب أجريت في ولايات ناجالاند و هريانا و دادرا ـ ناجرهويلى و مهراشترا، إلّا انها لا تكفي لنتلمس نتائجها على مستوى عموم البلاد.

الكلمة الختامية:

السياسة التعليمية الجديدة التي أعلنت عام ١٩٨٦م ترجع بنا إلى عام ١٩٦٨م.. في المملكة المتحدة نشرت في فترة ١٥ سنة خمسة تقارير حيال موضوع اللغة، و في الهند فإننا مازلنا نرجع إلى نفس الصيغة الثلاث لغوية التي اتخذت عام ١٩٦٨م.. جاء في وثيقة الحكومة حول السياسة التعليمية (١٩٨٦م) أن الصيغة الثلاث لغوية منهج و استراتيجية و ليست هدفا، لكن الجهات التي تولت الادارة التعليمية فيما بعد قد نسيت - فيما يبدو - ذلك.

في عام ١٩٦١م كان المجمع الرياضي في الولايات المتحدة قد أنشأ وحدة لعلوم اللغة، ذلك و الحال أننا في الهند مازلنا نتساءل عن هذه العلوم اللغوية أتكون من فصيلة العلوم أو من فصيلة الآداب. اللغة و السياسة يرتبط بعضهما مع البعض برباط قوى، و بالرغم منه فإنه قليلا ما نرى علوم اللغة تجد مكانا لا في العلوم الاجتماعية أو علم النفس، و لا حتى في الآداب ذاتها. العلوم اللغوية هذه تستمر خارجة عن قائمة الموضوعات في عدة جامعات فما الحال اذن عن الدراسات دون مرحلة الجامعي. ثم و إن الدراسات الخاصة بالايصال هي الأخرى تخلو من علوم اللغة. و عل ذلك كله بسبب انعدام صفة الترابط الداخلي بين الموضوعات، و أيضا بسبب ما يعرف عن خطأ باستقلالية المناهج المعرفية. معلوم عن نشر التعليم و محو الأمية أنه نشاط ذو علاقة خاصة مع اللغة، كما لا يخفى على أحد أن علوم اللغة يسعها أن تساهم في المجهود التعليمي هذا مساهمة هامة، و بالرغم منه فانها لا تجد مكانا في المقرر الخاص بالتعليم. و ما ينطبق على التعليم ينطبق أيضا على وسائل الاعلام.

لوحظ منذ سنين أن علوم اللغة غدت وراء امكانية المواطن العادي. علوم اللغة التاريخية و دراسة صياغة الالفاظ و علم الاصوات و اللغويات الحسابية و علوم اللغة التطبيقية جميعها تأخذ المقعد الخلفي في المنهج اللغوي. بعد

الانطلاق في مسعى للبحث عن نظرية حيال القواعد النحوية التحويلية وغيرها قد بلغ بنا الأمر إلى نقطة حيث نواجه نقصا في الأفراد القادرين على تدريس المقرر اللغوي بشتى مشمولاته.

في مدة مائتين سنة من حكمهم على الهند استطاع البريطانيون أن يجعلوا ٢٪ من الهنود يعرفون أصنافا من اللغة الانكليزية. و في فترة الخمسين سنة الأخيرة رفعنا نحن الهنود تلك النسبة إلى ٤٪.

لقد ادعى البريطانيون أن دورهم يكون تثقيف من لم يكن لهم نصيب من الثقافة، و اللغة الانكليزية أتت أداة لذلك الغرض. أما التنمية الاقتصادية فانها كانت ـ فيما يبدو ـ هدفا من أهداف القدوم الثاني للمستعمرين الذين تصوروا أن الطريق المتبع في الغرب هو الطريق الوحيد الذي يؤدي إلى التنمية. و حماية بيئتنا تشكل صميم قدوم الاستعمار الثالث الذي يتم في الوقت الحالي. إلّا أنه بغض النظر عن النوايا المعلنة تثقيفا كانت أو تنمية أو حماية البيئة، فان هدف الاستعمار الحقيقي هو الاستغلال. ففي بريطانيا نفسها تحولت الانكليزية إلى سلعة من السلع التجارية، و تراعى شئونها سلطة التجارة البريطانية.

خلال الخمسين سنة الأخيرة اكتسبت اللغة الانكليزية أهمية متزايدة، و لم تعد فقط لغة رسمية مشاركة للاتحاد الهندي، و إنما أصبحت أيضا لغة رسمية لولايات في شمال شرق البلاد. و هي اللغة المسيطرة في التعليم و الادارة و المواصلات العامة، و اسهامها كبير في توسيع الفجوات بين الأغنياء و الفقراء، بين المدنيين و القرويين، بين المثقفين وغيرهم. الغشاء الانكليزي الرقيق الذي يغطي التعليم في مراحل مختلفة، يسفر عن ظهور شخصية بمعرفة نصفية للغة، غير متقنة لا الانكليزية و لا اللغة الأم.

نظرة في السناريو المطبعي تكشف أن ٥٠٪ من المطبوعات في فترة سنة تكون باللغة الانكليزية وحدها، و النصف المتبقى تتقاسمها اللغات الهندية

بـجملتها. في ميدان التعليم نسمع عن الكتب المدرسية و لا نطلع على شيء عن القـراءات المتوازية. و في الإدارة العامة نتلمس ولاء لما هو أجنبي و غريب عن الوطن، و غدرا بحق ما هو محلي.. و عن الاعلام الالكتروني فإنه يستخدم اللغات الهندية في برامج الترفيه و اللغة الانكليزية للايصال الفكري.

الـهـنـد بـلـد مـتعدد اللغات و الطوائف. و مهام البناء الوطني في مثل هذه الـدول تـكـون قابلة للتنفيذ بعد الاعتراف بذلك الواقع التعددي و ليس بدونه. لكنه نرى من جانب آخر أن عملية الاندماج الوطني تتطلب ـ من سوء الحظ ـ القضاء عـلـى تلك التعددات. الانخراط في التيار الوطني يكون واجهة، و هدفه الحقيقي هـو الامـتـصـاص. و بـالـرغـم منه فإنه يمكن للهند أن تلعب دور قائد للعالم غير الـعـالـم الـغـربـي اذا مـا يتيسر لها الاطلاع على امكانياتها الحقيقية التي يكون أهمها و أقواها "التعددية".

تعريب: فريد الزمان

كلمة التحرير:

في آخر يوم من العام الفائت خسرت بلادنا الهند و بالتالي العالم الإسلامي كله شخصية عبقرية فذة قلما يأتي الزمان بمثلها و ذلك في وفاة الكاتب الإسلامي الجليل و الداعية الكبير و رائد الحركة الإنسانية الشيخ أبي الحسن علي الندوي رحمه الله الذي وقف حياته لإعلاء كلمة الحق و نشر رسالة الإنسانية و تقويم مسار الأمة الإسلامية و إصلاح المجتمع الهندي حفاظا على التراث العلمي و الدعوى للسلف و الذي انتقل إليه عن طريق أبيه الفاضل صاحب الموسوعة المعروفة - نزهة الخواطر- و تأبيناً لروح الفقيد رأينا أن نضمن هذا العدد مقالاً خاصاً تناول فيه كاتبه الأستاذ الدكتور شفيق أحمد خان الندوي الجوانب المختلفة لحياته خاصة العوامل التي لها دور هام في تكوين شخصيته و ذكر في مقدمتها البيئة الدينية و العلمية التي نشأ و تربى فيها الشيخ و انتماءه إلى أسرة الشيخ أحمد بن عرفان الشهيد الراي بريلوي المعروف بحركته الإصلاحية - كما أبرز الجوانب العديدة لحياته بصفته عالماً فذاً و داعية كبيراً و مفكراً إسلامياً و كاتباً قديراً و راعياً مخلصاً لمصالح الأمة و وطنه معاً - و أردف ذلك بقائمة لمؤلفاته التي يربو عددها على ١٥٩ كتاباً بين صغير و كبير، و لا بد لنا من الاعتراف بأن مقالاً واحداً فقط لا يكفي لاستيعاب المناحي الشتى لهذا العالم الكبير الذي كان مفخرةً للهند و منارة رشد و هدىً لسائر العالم، و لذا فقد قررنا نشر سلسلة من المقالات في أعداد مجلتنا هذه تعرف بشخصية الشيخ و مساهماته التي ظل يثرى بها الحياة العلمية و الثقافية و الاجتماعية للهند لأكثر من نصف قرن.

مقال مهم آخر يحتوى عليه هذا العدد هو ما كتبه الأستاذ الدكتور جلال السعيد الحفناوى تحت عنوان المقاومة السلبية: "اللاعنف و عدم التعاون بين غاندي و آزاد: قراءة في الفكر السياسي الهندي "و أكد فيه أن غاندي و آزاد كانا وجهين لعملة واحدة في الفكر السياسي الهندي و بينما استمد غاندي فكرة اللاعنف من دادا بهاى البارسي فإن آزاد استمد فكرة عدم التعاون مع الانجليز من مبادئ القرآن الكريم و اجتهادات الشاه ولي الله الدهلوي و قد ابرز الكاتب أوجه المماثلة العديدة بين الزعيمين و حاول اثبات أن فكرة المقاومة السلبية أو العنف هي فكرة إسلامية كانت موجودة نفذها زعماء المسلمين قبل أن يولد غاندي بمائة عام و أنها نفس النظرية و المبدأ الذي نادى به الهنود القدماء خلال القرون الماضية غير ان ميزة غاندي تتمثل في أنه مارس هذه النظريات على نطاق واسع.

بالإضافة إلى هذا يحتوى العدد كالعادة على مقالات أخرى متنوعة حول موضوعات شتى بعضها يقدم استعراضاً للتقدم الذي أحرزته الهند في مجال العلوم و التكنولوجيا و بعض الآخر يحلل السياسات التعليمية للبلاد.

د/ زبير أحمد الفاروقي